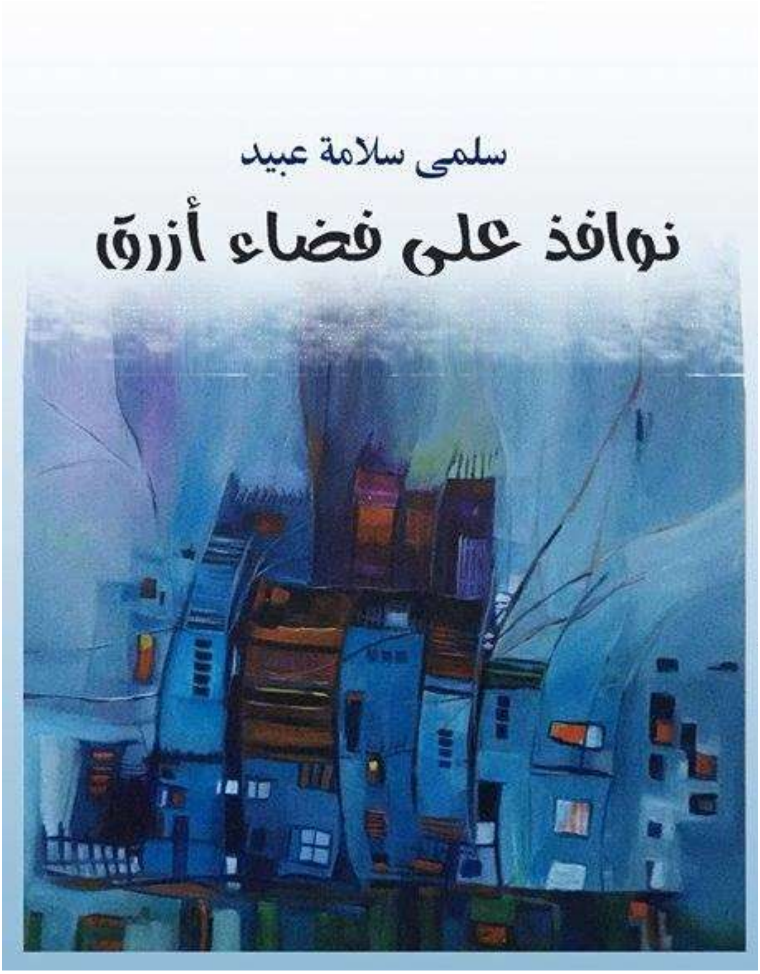
سلمى سلامة عبيد
نوافذ على فضاء أزرق

الكتاب: نوافذ على فضاء أزرق

الكاتبة: سلمى سلامة عبيد

الناشر: دار هدوء للنشر

لوحة الغلاف: سوسن أبو فراج

تصميم الغلاف: عامر قطيش

الطبعة: الأولى ـ 2020

جميع الحقوق محفوظة للكاتبة

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار هدوء

هدوء للنشر والطباعة والتوزيع Hodu' Publishing House

السويداء – سورية

هاتف: 00963-16-210584

خلوي: 0955470048

fawazazzam@hotmail.com

contact.hodu@gmail.com

المشرف العام: فوّاز عزّام

يمنع نسخ أو تصوير هذا الكتاب أو أجزاء منه بأي وسيلة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو تصوير ضوئي أو تسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى دون أذن خطي مسبق من الكاتبة: obeidssalma@gmail.com

الغريبة ذات الفستان الزهري

وقفت أحدِّق في البحر الخرافيّ السحر، والبيوت الجميلة الوادعة المنتشرة على السفوح الخضراء، وأتساءل: هل هذا الجمال الذي يحيط بي هو هديّة الساعات الأخيرة من حياتي؟!

* * *

في اليونان

وأنا في رحلة سياحيّة إلى عدّة مواقع أثريّة جميلة، وصلت إلى قرية فيها معبد أثريّ قديم، وطبيعة باهرة الجمال، أعطانا الدليل السياحيّ معلومات عن المكان، ولكنّني شعرت بحاجتي إلى البقاء في هذا المعبد الساحر، بعيداً عن ثرثرة الدليل، وصخب السيّاح. سألتهم عمّا إن كان هناك باصات تعود بي إلى أثينا، فأكّدوا لي توفّر ذلك، ودلّوني على مكان وجودها.

جلست بمفردي بين الأوابد، أصغي إلى حكايا التاريخ، والأساطير، والآلهة، ترويها لي أحجار المعبد، وكانت الطبيعة الساحرة مثل موسيقا تصويريّة تصاحب الحكايات. تجربة نقلتني إلى عالم جميل، غريب، ساحر، فنسيت الوقت، واستغرقت في هذه المتعة الربّانية.

ثمّ نظرت حولي: السيّاح الذين كانوا يملؤون جنبات المعبد تبخّروا، ولم يبقَ غيري!

عدت بسرعة إلى القرية لأستقلّ الباص عائدةً إلى أثينا. وتجمّدت من الرعب عندما وجدت أنّ جميع الباصات قد اختفت!

حاولت التحدّث مع بعض سكّان القرية، ووجدوا لي من يعرف بضع كلّمات بالإنكليزية. تجمّع القرويّون حولي يبرطمون بلغة لا أفهمها، وعندما جاء المترجم أفهمني ما يحصل:

- Afternoon ... No bus

- Taxi?- قلت له.

- Afternoon no taxi

- Hotel? - طرحتُ سؤالي الساذج.

وبدأ القرويّون يضحكون من سؤالي الغبيّ، فقد كانت القرية صغيرة، وسكّانها من الفلاحين يتفرّجون على الباصات السياحيّة المنظّمة التي تأتي إلى بلدتهم وتذهب، دون أن يعنيهم أمرها.

وصاحت سيّدة سمينة وجسمها يهتزّ من الضحك:

- We farmers.....Have hotel for goats... Have hotel for chickens .... For people no hotel

أنا في قرية يونانيّة نائية. الشمس تميل إلى الغروب، وأنا لا أجد حافلة ركّاب، ولا "تاكسي"، ولا فندقاً، لا أجد إلّا وجوهاً غريبة، تتكلّم لغة غريبة.
هل سيحاولون مساعدتي وإيجاد طريقة لإيصالي إلى أثينا؟

هل سيملّون منّي ويذهب كلٌّ منهم إلى شأنه، ويتركونني في الساحة طعاماً لوحوش الليل؟ إذا لم أجد واسطة نقل، أين سأنام؟ هل سيستضيفونني في بيوتهم؟ ربّما لا يثقون بغريبة تتجوّل لساعات في المعبد.

هل سيرسلونني إلى (!Chicken (Hotel!)...Goat (Hotel؟ هل سأمضي ليلتي في حظيرة الماعز بين جديانٍ تتقافز عليّ وحولي؟

هل سيقتلونني ويُخفون جثّتي، فالسيّاح عادة يحملون معهم أموالاً تُغري بذلك!

كانوا ودودين وطيّبين، ولكنّ لحظات الخوف تشحن الخيال بكلّ السيناريوهات المرعبة.

وفجأة..

من أسفل الجبل شاهدناه قادماً. باص يبدو من بعيد مثل لعبة أطفال. تعلّقت عيوننا به، وهو يظهر مرّة ويختفي أخرى: هل سيأتي إلى القرية أم سيتّجه إلى مكان آخر؟

وأخيراً، ظهر أمامنا بكلّ أبّهته، باص يحمل مجموعة من السيّاح. علمنا منهم أنّ زيارتهم تأخّرت بسبب عطل في الباص! استأذنت المشرفين على الرحلة بالعودة معهم إلى أثينا ووافقوا. وتجمّع سكّان القرية يلوّحون للغريبة ذات الفستان الزهريّ مودّعين!

الغريبة ذات الفستان الزهري في اليونان !

همس المشاعر!

- "يا زلمة ما في غير قطّابك مدنقر بهالمقرود!"

قالت وهي تشير إلى موبايله الحديث.

- "هالمقرود.. أحلى من هالمقرودة!"

أجابها بغيظ وهو يشير إليها.

***

خطبها بعد أن مدحوها أمامه:

- "درويشة.. هيّنة ليّنة.. إلها ثُم ياكلّ.. ما إلهاش ثمّ يحكي!"

منذ أن تزوّجا قبل خمسة وثلاثين عاماً، وهو يدخل عابساً، ساخطاً، لاعناً، فقد غرسوا في عقله منذ كان طفلاً أنّ درجة قوّة شخصيّته ورجولته يحدّدها ارتفاع الصوت وقسوة العبارة، وهو لا يقبل أن يكون برجولة منتقَصة.

كانت إهاناته لا تنتهي بدءاً من طمس شخصيّتها وإذلالها، إلى حرمانها من كلمة حنان تتعطّش لها، فـ"الحرمة ما بتنعطى وجه، ولازم الواحد يظلّ مفرجيها العين الحمرا"!

كان يعذّبها إحساسٌ قاتل بأنّها عبدة لا تملك في حياتها قراراً، ماذا تفعل؟ تترك البيت؟ وإلى أين؟ هل يستقبلها أخوها؟ وإذا استقبلها خادمةً مسلوبة الكرامة، هل سيقبل بتربية أطفالها؟ هل بإمكانها أن تستأجر بيتاً لها ولأولادها؟ حتّى لو وجدت عملاً يؤمّن لها ما يكفيها، هل يسمح لها أهلها أن تكون مطلّقة تعيش بعيدة عن عين حُماة العرض؟ هل سيرحمها المجتمع ويرحم أطفالها والمطلّقة مُدانة ولو ثبتت براءتها؟ ارتضت لنفسها حياة العبيد لأنّها كانت تدرك أنها بتخلّصها منه لن تصبح حرّة؛ بل ستستبدل سيّداً بسيّد.

كم كانت فرحة عندما أنجبت ابنها البكر! كانت تحلم بلقب جميل يخلّصها من اسمها الذي تكرهه، في المدرسة كانت المدرّسات الشاميّات يتساءلن بسخرية: - "اسمك خزعة؟ شو هالإسم هاد؟ لك مو حرام عليهن يسمّوكي خزعة؟". كانت تحلم بأن تصبح: أمّ وائل.. أمّ رمزي.. على اسم معبودها أحمد رمزي، أمّ فريد: مطربها ساحر الصوت، ولكن لسوء حظّها قرّر زوجها أن يسمّي الصغير على اسم والده: خزاعي. حاولت أن تعترض، لكنّها ما إن فتحت فمها حتّى صرخ بها:

- "ولك كم مرّة بدّي قول لك: بسّ الزلم تحكي، النسوان بتسدّ نيعها وبتخرس؟!".

وأصبحت خزعة: أمّ خزاعي!

* * *

انتهت أيّام استعبادها. أصبح أولادها سنداً لها، لا يقبلون أن تُضام ولو بكلّمة. ابتدأ صوته ينخفض وصوتها يعلو، وأصبح فمها يأكل ويتكلّم بعد أن

كان مختصّاً بمهمّة واحدة، ولكنّها بقيت تتعطّش إلى لحظة رومانسيّة وحنان وكلّام جميل، كالتي تشاهدها على شاشة التلفزيون، وتحوّلت عواطفها إلى شبح شجرة تين يابسة.

وجاءت (الموبايلات) الذكيّة وجاء معها (الفيسبوك).

أبو خزاعي أنشأ لنفسه صفحة فيسبوك في موبايله على السريع، وصار يقضي معظم وقته (يُبحبش) فيه، ويكتشف ما فاته من معارف! أمّا هي فقد خبّأت الموبايل الحديث الذي أحضرته لها ابنتها، وكلّما طلب منها أبو خزاعي أن تتعلّم طريقة استخدامه كانت تجيب:

- "يا ذلّي يا زَلَمة! بعد هالعمر أعمل فيسبوك مثل هالأواليد؟! أني التلفون يا دوب بعرف ردّ عليه!".

وكان يبرطم:

- "نسوان قليلين فهم، يا خسارة الموبايل فيها!".

لم يكن أبو خزاعي يعلم أنّ ابنة الجيران كانت تزوّدها بمعلومات بعيدة عن متناوله؛ فالكبّة واليبرق والمحاشي التي كانت تأخذها للشابّة أمّنت لها كلّ ما تريده من مهارات استخدام الهاتف الذكيّ، وكيف تعمل صفحة فيسبوك دون الاستعانة بأحد.

- "أني نازلة لعند جارتنا بلكي بتساعدني بتقميع البامية".

تدسّ في الكيس شيئاً صغيراً كان مخبّأ في قعر أحد الأدراج وتذهب. تفتح لها الجارة الباب وتضحكان بشقاوة مراهقتين، تقمّعان البامية على السريع، وتجلس أمّ خزاعي ويدها على الموبايل، وجارتها تتابع المسلسل مرّة وتستمع إلى مقتطفات من غزل المعجَب الفيسبوكيّ، هي على الفيسبوك

ليست خزعة ولا أمّ خزاعي، هي "همس المشاعر".. تستمرّ السهرة وقريحة المعجب المولّه تفيض بالكلّام الرقيق.

- "شوفي الملعون! خمسَ وتلاثين سنة ما سمعت منّو كلّمة حلوة.. هلّق مع همس المشاعر فاضت مشاعره!".

تدقّ ساعة السندريللا، فتعود أمَّ خزاعي من جديد.

تنظر إلى أبو خزاعي.. هذا الرجل ليس صنماً.. لديه مشاعر وأحاسيس خنقتها تربية جعلت منه سيّداً ومنها عبدة.. وهل يكون حبّ بين سيّد وعبد؟

ينظر إلى أمّ خزاعي ويتحسّر.. ليتها كانت بحنان ورقّة همس المشاعر! ليتها كانت تمتلك ولو جزءاً من ذكائها وخفّة ظلّها! لماذا لم يجمعه القدر بهمس المشاعر منذ خمسةٍ وثلاثين عاماً ليعيشا تحت سقف واحد؟

لم يكن يدري أنّ القدر قد فعل!

مرحبا آنسة.. عرفتيني؟!

أعادني الوجه الطفوليّ البشوش، والعينان الباسمتان إلى ما قبل سنوات.

طفل في السادسة يحمل علبة فيها "علكة "، يسير بكبرياء وتهذيب دون أن يمدّ العلبة في وجه أحد، ودون أن يترجّى قائلاً:" اجبُروا عنّي!". لاحظته يوماً وقد بقي يعمل حتّى ساعة متأخّرة من المساء، وحاولت أن أعطيه مبلغاً من المال. رفض في البداية، ثمّ قبِل مبلغاً صغيراً، وهو يقول:

- "هذول بيكفّو.. ما كنت أخذتهن لو ما كنت مضطرّ.. إذا أخذت أكثر بكون شحّاذ!". ثمّ أردف:

- "إنتِ بتقبليلي كون شحّاذ، يا آنسة!؟".

احترمت رغبته، ولكنّني أوصيته أن يأتي كلّما كان مضطرّاً. كان يأتي أحياناً إلى قرب البيت، ويتمشّى بصبرٍ شديد على الطريق، آملاً أن أراه، وأفهم من تلقاء نفسي أنّه مضطرّ لمبلغ بسيط. لم يقرع الباب يوماً، بل كان ينتظرني لأناديه، ويأخذ باستحياء شديد.

كنت أتساءل: هل هذا الطفل يعيل إخوةً أصغر سنّاً؟ أمّاً مريضة؟ زوجَ أمٍّ ينتظره، بـ"القشاط"، إذا لم يُحضِر "المعلوم"؟

شاهدته مرّة يحدّق بسيخ (الشاورما)، وفتحتا أنفه تتحرّكان بلهفة، محاولتَين التقاط الرائحة الشهيّة. ناديته وطلبت له ساندويشة. قبِلها بعد

إلحاحٍ ولم يأكلها، بل انطلق مسرعاً.. ربّما ليقدّمها لشخص أعزّ عليه من نفسه.

سلّم عليّ اليوم، وكم كانت فرحته كبيرة عندما قلت له: "أكيد بتذكّرك!".

سألته عن أخباره.. نظر باعتزاز إلى بسطة الجرابات والطواقي أمامه، وقال:

- "هذي البسطة تبعي.. والحمد لله!". حاولت أن أدسّ في يده مبلغاً وأنا أُقول:

- " كلّ عام وأنت بخير.. هذه عيديّة!".

رفض بإباء وكبرياء:

- "أنا هلّق صرت شبّ.. مش عيب مدّ إيدي وآخذ؟! أنت بتقبليلي كون شحّاذ، يا آنسة؟!" طفل في الثانية عشرة يجلس على الرصيف في هذا البرد القارس.. ينفخ على يديه المزرقّتين من البرد.. يكافح برأس مرفوع.. ويرفض أن يمدّ يده للآخرين ولو حتّى لقبول عيدية!

كم أحترمك أيّها الطفل!

عرّاب الثقافة!

- "روحي، أختي، الله يجبر عنّك!".

كان يجلس خلف مكتبه، رجل خمسينيّ بكرشٍ عامر.. ورأس خالٍ من العمران! في واجهة مكتبته التي تقع في أرقى منطقة بدمشق، شاهدت مجموعة كبيرة من الكتب.. فهتفتُ كما هتف أرخميدس:" وجدتها!".

***

كان ذلك قبل أكثر من خمسة وعشرين عاماً.. عندما قرّرت طباعة تراث الأديب سلامة عبيد، وارتأيت أن أبدأ بديوان "الله والغريب".. فتنقّلت بين دور النشر في دمشق وبيروت، وكان الجواب أسطوانة مشروخة لا تتغيّر: "نحن نطبع فقط، أمّا النشر فلا علاقة لنا به.. لا أحد يشتري دواوين شعر...". قلت: أطبعه ثمّ أحاول توزيعه على مؤسّسات التوزيع والمكتبات. وطُبع الكتاب بعد جهد جهيد ما بين الموافقات والتدقيق والمطبعة.

دلّوني على جهة مسؤولة عن توزيع المطبوعات في سورية، فأخذت لتلك المؤسسة ثلاثمئة نسخة من الكتاب. بعد عدّة أشهر ذهبت أستفسر، فقالت لي الموظّفة: - "قدّمي لنا طلب رسمي، لحتّى تتمّ دراسة الطلب، والموافقة عليه، وبعدين تخصيص اعتماد لتسديد أثمان النسخ المباعة".

وتابعت وهي تبتسم لي بعذوبة: - "رَح أعمل جهدي منشان ما تتعزّبي مشاوير كتير، لأنك مو ساكنة بالشام".

قلت لنفسي: لا بأس من هذه الرحلات بين السويداء ودمشق، بالتأكيد هي تستحق العناء، فلا بدّ أن النسخ قد بيعت جميعها وسيطلبون مني ثلاثمئة أخرى، فحجم الملفّ الضخم يوحي بذلك! ولم أصدّق أذني عندما أضافت:

- "بعنا ٣ نسخ ثمنها ١٥٠ ليرة، بيروح منها شويّة حسومات".
كان هذا هو الفصل الأوّل من المسرحيّة.. وتلاه فصول!

***

استعدنا النسخ الباقية بالجهد الجهيد، وقلت: أقوم بجولة على المكتبات الراقية في دمشق، وأطرح عليهم الموضوع.. وكنت كلّما مررت على مكتبة شعرت وكأنّني من الذين يجولون بالأمشاط والدبابيس ويصيحون:

- "نفّعنا الله يخلّيلك أولادك!".

إلى أن وصلت إلى مكتبة صاحبنا. سمعت الجواب المعتاد، وعندما استدرت لأخرج سألني: - "أختي! الديوان فيه كلام حلو؟.. هيك يعني، عدم المؤاخزة، من يلّي بيحبّوه الشباب الزغار.. غزل.. ما غزل؟!". وعندما أجبت بالنفي، حكّ صلعته ثمّ سأل:

- "أختي! طيّب، فيه لـ(فلان) مديح ما مديح؟!". وأجبته بلؤم: "لأ، ما فيه!".

عندئذٍ، هشّني بيده وهو يقول:

- "أختي، روحي، الله يجبر عنّك!".

وبعد أن خرجت، ركض ورائي مهرولاً وهو يصيح:

- "أختي.. أختي.. إنتي إذا بتعرفي تقري وتكتبي، شو رايك تعمليلنا شي كتاب طبخ ما طبخ؟!".

كان من الواضح أنّ كلام (عرّاب) الثقافة يخرج من كرشه، لا من رأسه.

***

وتتالت الفصول، واكتشفت أن العديد من عرّابي الثقافة يخرج كلامهم من مخارج أخرى غير رؤوسهم.

غريقة

- "سلمى، إنتِ بالبيت؟ بدنا نتطمّن.. قالولنا إنّك بالحبس!".

لم يتوقّف الهاتف عن الرنين طوال الليل: بعضهم كان يتّصل ليطمئنّ، وبعضهم الآخر ليعبّر عن غضبه مستخدماً كلّ المفردات المعروفة والمبتكرة! فغرقُ طفلةٍ بعمر الزهور، في رحلة، ليس أمراً سهلاً، وعلى صاحبة المركز أن تتلقّى الّلوم.

ذكّرتني بالحادثة أمس صديقة كان حفيدها مشاركاً في الرحلة التي نظّمها "مركز آفاق" للطلّاب، قبل عشرين عاماً؛ وما زالت تتذكّر، بعد كلّ هذه السنوات، وصف حفيدها الدقيق لتفاصيل غرق الطالبة: - "يا تيتا.. كانت تصرّخ وتمدّ إيدها لحتّى ينقذوها.. ما حدا استرجى يقرّب.. أنا ما خفت جرّبت إنقذها.. امسكت إيدها وحاولت إسحبها، ما قدرت.. وشفتها بعيني وهي عم تغرق وتختفي!".

* * *

ولكنّ للقصّة وجهاً آخر ربّما ترويه (الغريقة) الآن لأطفالها! عاد الطلّاب من رحلةٍ إلى بلدة عريقة، وكان قريب إحدى الطالبات بانتظارها لاصطحابها إلى البيت. سأل عنها في الباص الأوّل.. ثمّ الثاني.. ثمّ الثالث.. والطالبة كانت مفقودة.

قبل انطلاق الرحلة، كنتُ قد نظّمتُ قوائم بأسماء الطلاّب، وأعطيتُ كلّ مشرفة قائمة بأسماء عشرة طلّاب، تكون هي مسؤولة عنهم. جئنا بالمدرّسة المشرفة على الطالبة المفقودة، فقالت: إنّ الطالبة نزلت عند دوّار الباسل مع ثلاث من صديقاتها، وهذا مسجّل في القائمة؛ ولكنّ الرجل لم يقتنع، فذهب إلى الطلاب في الباصات ليسأل عنها.

في ذلك الوقت مرّ رجل مسنّ، كان يتسلّى بالدردشة مع الطلاّب، فسألهم أين كانوا، فقالوا: عريقة. لم يسمع الرجل فأعاد السؤال. تحمّس الطلاّب فصاحوا: عرييييييقة!

صاحبنا وليّ أمر الطالبة المفقودة سمع الطلاّب يصيحون عريقة، فظنّهم يقولون: غريقة!

فبدأ يصرخ: غريقة.. غريقة!

الطلاّب في الباص الأوّل سمعوا الرجل يصرخ: غريقة، فبدؤوا هم أيضاً يصرخون: غريقة!

وفي الباص الثاني بدأ الطلاب يصرخون: غريـقة! ثمّ انضمّ إليهم من في الباص الثالث، وصارت الباصات الثلاثة تصيح: غريقة.. غريقة!

***

عاد الطلاّب إلى بيوتهم وكلّ واحد يروي التفاصيل الدقيقة لغرق الطالبة المسكينة، وكانت محاولات الإنقاذ متشابهة في تفاصيلها مع تغيّر اسم البطل حسب الراوي! وبينما كان الجيران يتقاطرون إلى بيت الغريقة، دخلت (الغريقة)، وفي يدها قرن البوظة الذي خطر ببالها أن تذهب مع صديقاتها لشرائه، وهي تسأل ببراءة شديدة:" شو في؟".

امسح واربح!

- "يا خالتي أم أكرم! يا سلمى! باركوا لنا! الله جَبَر بخاطرنا!".

كان أهلها يتابعون هواية "امسح واربح"، وكلّهم إصرار على أن يربحوا الجائزة الكبرى. في كلّ مرّة كانوا ينظرون إلى "الجزء المفقود" بخيبة أمل، ويعيشون بانتظار أن "يجبر الله خاطرهم " في السحب القادم، وأخيراً "جبر الله خاطرهم " وفازوا بالجائزة الكبرى، ونقلوا فرحتهم الغامرة إلى بناتهم.

شاهدتها اليوم، وعادت صورتها إلى ذاكرتي، عندما جاءت منذ خمسين عاماً تحمل البشرى للجيران، ويداها ترتفعان بالحمد والشكر. تبادلنا الأحاديث، وسألتها عما إذا كانوا سيهدمون البنايات القديمة التي يملكونها، ليشيدوا مكانها برجاً حديثاً، وفوجئت عندما قالت -: "إذا قصدك بيت أهلي.. نحنا البنات ما طلعلنا شي!

- "تنازلتو؟!".

- "هه هه! بس مرض الوالد، جاب خيّي الكاتب بالعدل، وابصم.. ابصم.. ابصم.. خلّاه يكتب له كلّ شي بيع نهائيّ".

- البنايات كلّها؟ مئات الملايين من الليرات؟

- "البنايات والمحلّات، والبساتين والكروم، كلّ شيء، طلّعونا زملّوطي! أنا وجوزي هلّق عايشين على تقاعد تلاثين ألف.. مندفع نصّن ثمن دوا".

استعدت في خيالي منظر وجهها الطافح بالفرح.. وصوتها الذي كان يلهج بالشكر لله.. استرجعت كلماتها:

- "يا خالتي أمّ أكرم.. يا سلمى.. باركوا لنا! الله جبر بخاطرنا.. إمّي جابت صبي!".

سلمى عبيد.. مطلوبة عند الضابط!

كان يقف ببدلته العسكريّة، والنجوم تلتمع على كتفيه، وأنا أرتجف قبالته.. "فراري يا شحاري!".

***

كان ذلك منذ أربعين عاماً، وكنت عائدة من لبنان.

أخبروني قبل أن أسافر أنّ سفري دون موافقة مديريّة التربية سيعرّضني للمساءلة القانونيّة، وقد تعني السجن، ولكن، هل كان أمامي خيار آخر؟

***

في ذلك الوقت كان عدد خرّيجات الجامعة قليلاً، وكان قبول الاستقالات غاية في الصعوبة. فعندما حصلت على قبول من الجامعة الأمريكية في بيروت لمتابعة الدراسات العليا، تقدّمت بطلب استقالتي فوراً، وأرفقته بطلب إجازة بلا راتب، في حال أنّ الاستقالة رُفضت أو تأخّرت.

بدأتْ الدراسة في الجامعة وأنا ما زلت في السويداء، أهرول من موظّف إلى آخر، للحصول على موافقة على الاستقالة أو الإجازة، ولكنْ، عبثاً.

مديريّة التربية وافقت على الإجازة بشرط الحصول على الانفكاك من مديرة المدرسة. وكانت المديرة لا تتقن من لغة الكلام سوى حرفين فقط: اللام والألف!

شرحت لها كم سيكون مفيداً، لي ولغيري، أن أدرس طرائق التدريس في الجامعة الأمريكية، لأقوم بواجبي كما يجب، وكيف كنت أحلم منذ كنت صغيرة أرافق والدي إلى الجامعة الأمريكية بأن أعود فأدرس في تلك الجامعة. شرحت لها كم بذلت من مجهود لأنجح في فحص القبول، وكم تعبت للحصول على كتب تزكية من أساتذتي في الجامعة. كم جمعت الليرة فوق الليرة من راتبي لأدفع قسط الجامعة، وأنّي سأخسره إذا لم أسافر فوراً. كانت تتكرّم أحياناً فتزيد على الـ "لا" عباراتٍ مقتضبة: "مش شغلي! ما بيهمّني! ما ليش علاقة!".

كانت زوجةَ مسؤول من خارج المحافظة، ولا بدّ لزوجة المسؤول من أن تكون (مسؤولة)! أمّا مؤهّلاتها الوحيدة لإدارة المدرسة، فهي أنّها زوجة مسؤول، وكانت مستمتعة بأنّها تدمّر طموحي بحرفين تنطقهما بلؤم ودون مبالاة.

عدت إلى البيت ولم أنم تلك الليلة. تذكّرت كلامَ والدي عندما نجحت في امتحان الشهادة الثانويّة بتفوّق، وكان بإمكاني الحصول على منحة من الدولة مقابل الالتزام بالعمل في مؤسسات الدولة:

"أريدك أن تكوني سيّدة قرارك.. أريدك أن تكوني حرّة!".

كان راتب المنحة في ذلك الوقت ٢١٠ ليرات، وراتب والدي التقاعدي ٣٢٠ ليرة. يعني كنّا بأمسّ الحاجة إلى ذلك المبلغ، ولكنّه أرادني أن أكون حرّة.

والآن أجد نفسي، على الرغم من أنّني استنكفت عن المنحة، أسيرة عمل لا يستهويني، ولا أعرف كيف أؤدّيه.

وكان لا بدّ من "الهريبة". سافرت إلى لبنان في اليوم التالي، فقامت الدنيا ولم تقعد، واعتبرت السيّدة المديرة سفري تحدّياً شخصيّاً لها، فبدأت تتّصل بوالدتي لتهدّدها بأنّني سأدخل السجن، إذا لم أعد إلى عملي على الفور. وكانت والدتي تتّصل بي في لبنان، وترجوني أن أعود.

ولكنّني كنت قد اتّخذت قراري: "أريد أن أكون سيّدة مصيري.. أريد أن أكون حرّة!".

أخيراً قُبلت الاستقالة، واعتبُرت الأيّام التي تغيّبت فيها قبل ذلك إجازة بلا راتب، وأبلغوا والدتي بأنّ المشكلّة قد حُلَّت.

عندئذٍ، عدت من لبنان في إجازة، وكنت طوال الطريق أتساءل ما إذا كانت المشكلة قد حُلّت فعلاً، أم أنّه استدراج لي للعودة؟ كنت أيضاً أتساءل: هل سيحاكمونني أولاً؟

هل "سيلقطونني" عن الحدود ويذهبون بي فوراً إلى السجن

***

أتممت ختم أوراقي لدى مركز الحدود، وتنفّست الصعداء.

وكنت عائدة إلى السيارة أقفز فرحاً، عندما ناداني عنصر الأمن: "سلمى عبيد.. مطلوبة عند الضابط!".

في تلك اللحظات تخيّلت نفسي سجينة مع "الزمل"، وبينهنّ القاتلة، واللصّة، والمجنونة، وابنة الشوارع. تخيّلت نفسي أحاول النوم على فراش مليء بالبراغيث. تخيّلت نفسي أحمل قطعة من الخيش أمسح بها أرض المهجع.

وقفت أمام الضابط. لم أشاهد ابتسامته العريضة، ولا يده الممدودة للترحاب. كنت فقط أرى النجوم على كتفيه، وأحدّق فيه برعب!

- "أهلاً آنسة سلمى! ولوّ، ما عرفتيني؟ أنا (فلان) زميلك بالجامعة! أنا عمبخدم عسكريّتي هون.. حبّيت سلّم عليك.. وأتطمّن على أخبارك!".

من جامعة دمشق

إلى الجامعة الأمريكية في بيروت

طلب منّا أحد الأساتذة في الجامعة الأمريكية أن نذهب، ونجمع (بروشورات) عن البلدان السياحيّة من مكاتب السفر. وعندما سألت آخر عن الكتب المقرّرة للمادّة نظر إليّ باستغراب، وقال لي: اذهبي إلى المكتبة واختاري ما تريدينه! أمّا الثالث فقد كان يستمع للطلّاب، وكانت مهمّته هي إدارة الحوار فقط.

وتساءلت بخيبة أمل: لماذا يأخذون من الطلّاب هذه الرسوم الباهظة ويدفعون لهؤلاء الدكاترة وهم لا يفعلون شيئاً له أهمّيّة؟

***

ولكنّني مع الأيّام تكوّنت عندي فكرة أوضح عمّا يجري: الطالب الذي يتعلّم اللغة بحاجة إلى أن يربطها بشيء ممتع وجميل، و(بروشورات) السفر جميلة ومجّانيّة، ويمكن استخدامها كوسائل إيضاح. من هذا النشاط تعلّمنا: ألاّ نحبس أنفسنا في الصفّ، أن نخرج باعتبارنا مجموعات متعاونة، أن نبحث عن مصادر مجّانيّة وممتعة لصفوفنا.

الطالب من حقّه أن يختار ما يعجبه من الكتب، وليس من حقّ المدرس أن يفرض رأيه على الطالب. إذا سأله الطالب فهو يقدّم اقتراحات، ولكنّ الطالب هو سيّد القرار، وهذا مناقض تماماً لما اعتدنا عليه في جامعة دمشق.

الطالب الجامعيّ بحاجة إلى أن يتكلّم، لا أن يستمع. ويجب عليه أن يتقن فنّ الحوار والنقاش والإصغاء إلى الرأي الآخر.

يكلّف الطلاّب بمشاريع جماعيّة، نجاح الطالب يعتمد كلّيّاً على نجاح مجموعته، ونجاح المجموعة أيضاً يعتمد على نجاح المجموعات الأخرى. الدراسة تعاون وتنسيق ونجاح جماعيّ وليس فرديّاً.

أتذكّر الأستاذ الأمريكي العجوز الذي شاهدني في المكتبة غير مرّة، فقال مازحاً: "لو شاهدتك هنا مرّة ثانية، فسوف أخنقك! تعلّمي من الحياة وليس من الكتب، تعلّمي وأنت تستمتعين بالحياة! الدراسة ليست حكماً بالأشغال الشاقّة!".

ليراتي السوريّة تطير في سماء بيروت!

جمعت ليراتي على مدى سنتين، لأدرس في الجامعة الأمريكية.. لكنّني لم أكن أتصوّر أنّ للّيرات هذه القدرة العجيبة على الطيران، إلاّ بعد أن أطلقتها في سماء بيروت!

طارت الليرات، وطارت معها الأحلام والأمنيات!

وماذا أفعل الآن؟

هل أعود إلى سورية؟ ولن يكون أمامي إلاّ أن أترجّى مديريّة التربية لكي تكلّفني بتدريس بعض الساعات في المدارس بليرتين ونصف للساعة، وربّما لن تقبل!

أبقى في لبنان؟ هه هه.. وكأنّ اللبنانيّين سوف يتسابقون لتكليف "حَورانيّ" بتدريس اللغة الإنكلّيزيّة في مدارسهم!

الخليج؟ يشترطون خبرة خمس سنوات لا أملكها. وخبرة السنتين في سورية ربّما تصنَّف عاهة لا خبرة!

ما العمل؟

جلست على مقعدي المفضّل في الجامعة، وحولي لوحة بديعة من أشجار وورود وبحر عميق الزرقة.. ولكنّني لم أكن أشاهد حولي سوى زنزانة بجدران سوداء فاحمة، وورود يابسة تغطّيها العناكب!

* * *

كان على المقعد صحيفة انتهى صاحبها من تصفّحها، إحساس غامض كان يدعوني إلى أن أتصفّح الجريدة. هل هو حدسي؟ هل هو ملاكي الحارس الذي لم يتخلّ عنّي يوماً؟ فتحت الجريدة، وعلى إحدى صفحاتها كان إعلان كبير من شركة أرامكو، تعلن فيه عن حاجتها إلى عدد من المدرّسين الذكور لتعليم الإنكلّيزيّة لموظّفيها، ولأوّل مرّة، مدرّسة واحدة لتعليم الموظّفات.

كان مكتب الشركة قريباً، وطوال الطريق كان يبرق في خاطري حلم، يوحي لي بأنّني سأكون الفائزة، ثمّ أعود إلى الواقع المرّ. هل سيختارونني من بين جميع المتقدّمات؟ "سوريّة " وليس عندي خبرة كافية، ومستوى " الكاريزما" عندي دون مستوى الصفر، وخاصّة وفق المقاييس اللبنانيّة!

وصلت إلى الشركة. شقلتني السكرتيرة من رأسي إلى قدميّ بنظرة مستخفّة، وقالت وهي تعطيني الطلب، وتشير إلى كومة كبيرة من الأوراق:

- "بدهن مدرّسة وحدة، وشوفي شو صار عنّا طلبات! ما تتأمّلي كثير!".

عبّأت الطلب، وقدّمته لها، وما إن لمحت كلّمة "سوريّة" على الطلب حتّى صاحت:

- "سوريّة كمان! ليش السوريّين بيعرفو إنكلّيزي!؟".

توّقعت أن ترمي الطلب في سلّة المهملات، ولكنّها لم تفعل! وبعد أيّام بدأنا سلسلة من الامتحانات.

....

وجاء اليوم الموعود لظهور النتيجة. ذهبت، فوجدت السكرتيرة تتلهّى بالأوراق دون أن تنظر إليّ، وقالت بلطف زائد:

- "تفضّلي ارتاحي! بطلب لك قهوة أو ليمون؟".

كان قلبي يدقّ بعنف شديد، وكانت عيناي معلّقتين بشفتيها، وجاء الجواب حادّاً مثل مقصلة:

- "أنا كثير آسفة.. مش إنتِ الناجحة في المسابقة!".

وأضافت بنوعٍ من (جبرة الخاطر): "بسّ أنتِ الاحتياطيّة رقم واحد".

عدت إلى الجلوس في حديقة الجامعة، أفكّر في حالي فلا أجد إلاّ أبواباً مقفلة.

مرّت أيّام.. وكنت في مكاني المفضّل، عندما شاهدت أحد أقربائي اللبنانيّين يقترب منّي مسلّماً وسائلاً:

- أنتِ قدّمت طلب للعمل في أرامكو؟

وانفعلت صارخة به:

- "أي نعم.. قدّمت وما نجحت.. بس لمعلوماتك، أنا احتياطيّة أولى بين كلّ المتقدّمات!:.
- "هه هه، أي لأ مش احتياطيّة، لا أولى ولا ثانية ولا حتّى عاشرة!".

كنت أريد أن أصرخ به من جديد، عندما لمحت ابتسامة شقاوة طفوليّة مرحة على وجهه. معقول؟ أنا لست احتياطيّة.. أنا...

وعاد البحر أزرق، والورود لم تعد ذابلة، وجاء صوت قريبي الذي وجد أنني لم أكن مستعدّة لمزيد من المزاح:

- "أنت تركتِ رقم تلفوننا عند الشركة ليتّصلوا فينا بحال الضرورة، اتّصلوا.. بدهن ياكي تراجعيهن بالمكتب".

وفي المكتب كانت السكرتيرة غاية في التعاطف والتهذيب:

- "حظّك من السما.. الله بيحبّك.. منافستك ما نجحت في الفحص الطبّيّ.. إذا نجحتِ إنتي في الفحص الطبّيّ بتكون الوظيفة من نصيبك!".

وقد حصل! وسافرت إلى الظهران، والتقيت الملقّب "أبو بطّيخة" الذي لم يُكنَّ بهذا لأنّ قرعته كانت بطّيخة، ولكن لأنّ بطّيخته كانت "قرعة"!

مع زميلة مصرية في بيتي في الظهران ، الثوب هدية من احدى طالباتي.

مع زميلة مصرية في بيتي في الظهران ، الثوب هدية من احدى طالباتي.

"أبو بطّيخة"!

وصلت إلى الظهران في السعوديّة، بعد أن وقّعت عقداً لتدريس الإنكلّيزيّة لموظّفات شركة أرامكو. وجدت معهد التدريب أنيقاً فسيحاً مزوّداً بأحدث التقنيّات، ولكنّ إجراءات افتتاحه لم تكن قد استُكملت بعد. وبقيت أنتظر وأستلم راتباً دسماً دون أن أقوم بأيّ عمل سوى المشاركة في اجتماعات مع زملائنا في معهد البنين.

كثيرون لم يكونوا سعداء بقدومي، فقد كانوا يأملون أن تكون الوظيفة من حظّ زوجاتهم، أو قريباتهم، ولكنّهم تصرّفوا بذوق وتهذيب. الوحيد الذي كان يناصبني العداء كان مدّرساً ضخم الجثّة، يحمل بين كتفيه رأساً كبيراً أقرع.. كانوا يطلقون عليه اسم "أبو بطّيخة". انزعج عندما لم يختاروا زوجته، وزاد انزعاجه عندما رآني سافرة دون عباءة أو شيلة.

في أحد الأيّام كانوا يتدارسون مشكلة عويصة، فقد سافر أحد الزملاء لأسباب طارئة وبقي طلّابه دون مدرّس. وجدها أبو بطّيخة فرصة ليورّطني فقال:

- أنت يا آنسة سلمى قدّها وقدود، فأنت تذهبين إلى الخبر والدمّام ببنطلون وشعر مكشوف.. ولا تخافين من "المطوّع".. أكيد لديك الجرأة للتدريس في معهد البنين!

كانت عبارته ساخرة، ولا أدري كيف خرجت منّي عبارة بزلّة لسان ودون قصد:

- عندي الجرأة وأقبل التحدّي!

نظر إليّ أحد الزملاء باستهزاء مشفق:

- "يختي.. ايش بتحكي إنتي؟! هاضول سعوديّين.. ويللا!".

خرجت العبارة منّي زلّة لسان، ولكنّها أصبحت الآن تحدّياً!

ووجدت نفسي أقول بإصرار:

- "أنا رح جرّب درّس، وإذا ما مشي الحال برجع!".
نظر المسؤول إليّ قائلاً:

- العقد بيننا وبينك هو فقط لتدريس البنات، والشركة ملتزمة به، وراتبك لا يتغيّر سواء قمت بالتدريس أم لا.

ولكنّني ركبت رأسي. يجب أن أنجح وأثبت أنّ بطّيخة أبو بطيخة.. قرعة!"

***

جاء اليوم الموعود، وذهبت إلى معهد البنين، وما إن نزلت من السيّارة حتى ازدحمت كلّ شبابيك المبنى برؤوس تراقب المخلوقة التي نزلت من السيّارة، وكأنّهم يراقبون مخلوقاً فضائيّاً ترجّل لتوّه من سفينة فضائيّة!

دخلت إلى غرفة المدرّسين، ببنطلون وشعر مكشوف، وصاح أبو بطّيخة:

- "وكمان جاي من غير عباية ومن غير شيلة؟!".

قلت له:

- أنا بالبنطلون والشعر المكشوف "تيتشر"، إذا لبست العباءة والشيلة، فسأتحوّل إلى "حرمة"!

أُعلنت حالة الطوارئ في المعهد، وجلس الجميع يترقّبون ما سيحدث. ولا تقولوا: شُجاعة، ولا "برافو عليكي"! كنت بالفعل متوتّرة وخائفة، وأحاول بكلّ جهدي أن أتماسك!

دخلت إلى الصفّ، وتعالى الضجيج:

- "حرمة.. حرمة! جابولنا (تيتشر) حرمة! عربيّة؟ لا، ما هي عربيّة؟ العربيّة تلبس عباية تلبس شيلة!".

تركتهم يستفيقون من الصدمة، ووقفت أتصنّع الهدوء والشجاعة! من زاوية الصفّ كانت عينان شديدتا الذكاء تراقباني بانتباه شديد. أشار إليهم أن يسكتوا، ثمّ وقف وتوجّه إليّ:

- "أنا متأكّد أنّك عربيّة وتعرفين العربيّة بعد.. وأنا أقول لك بالنيابة عن طلاّب الصفّ إنّنا نشكرك على التطوّع لتدريسنا في غياب الأستاذ.. شباب! يلّي ما يريد يبقى بالصف يتفضّل يخرج!".

لم يخرج أحد.. صمت الجميع وبدأ الدرس.. وسارت الأمور بسلاسة. كنت أتخيّل عينَيْ أبو بطّيخة تتلصّصان من الخارج، وأذنه ملتصقة بالباب بانتظار أن يشنّف أذنيه بسماع نداء استغاثة!

***

وتلا الدرس دروس، والطلاّب بذلوا كلّ جهدهم لكي لا "يتفشلوا" أمام الـ(تيتشر)، وجاءت علاماتهم عالية، وعدت إلى معهد البنات بعد اكتمال عدد الطالبات.

ربّما كنت الـ(تيتشر) الأولى التي درّست شبّانا سعوديّين، وحتّى دون أن تكون مرتدية عباءة أو شيلة.

ومرقت على خير!

أبو بطّيخة (تفنّش) بعد أن كثرت الشكاوى من لؤمه وتزمّته، وأنا بقيت ما يقارب الأربع سنوات، ثمّ استقلت لأعود إلى

السويداء، وأفتح أوّل مركز لغات في المحافظة.

عندما علقتُ في روما!

كنت في طريقي إلى الولايات المتّحدة، وكان خطّ سير الرحلة يقتضي نوم ليلة في روما. ذهبنا إلى الفندق الجميل في وسط روما، وفي اليوم التالي جاء باص الشركة لينقلنا إلى المطار. كانت المناظر رائعة، ومضيفة الباص لطيفة ورقيقة، وكلّ شيء يسير بشكلّ ممتاز إلى أن...

وصلت إلى المطار، وتذكّرت أنّ الفندق احتفظ بجواز سفري، وأنّني نسيت استرجاعه، ركضت إلى تاكسي، وعرضت على السائق مضاعفة أجرة العدّاد، إذا أوصلني إلى الفندق وعاد بأقصى سرعة.

انطلق بسرعة أين منها أفلام المطاردة الأمريكية.

وصلت إلى المطار ثانية، وركضت هرولة إلى البوّابة المحدّدة لطائرتي، فقالت لي الموظفة:

- آسفة.. أقفلنا الأبواب!

كان الحصول على حجوزات في تلك الفترة غاية في الصعوبة، فالطلاب يعودون إلى جامعاتهم، والتأخير معناه ضياع فرصتي في التسجيل في الجامعة بعد أن تراسلت معهم لأشهر.. وصرخت بالمسؤولة:

- بأيّ حقّ تأخذون جوازات سفرنا؟! أو على الأقلّ لماذا لم تذكّرونا باسترجاعها؟ موظّفة الاستقبال بالفندق.. السائق.. المضيفة المرافقة لنا في الباص.. المسافر يكون متوتّراً وقلقاً، لماذا لم تحسبوا حساب ذلك؟!

توقّعت أن يأتي أمن المطار ليتعامل معي "بالتي هي أحسن!"، ولكنّ الذي حصل أن تجنّد الجميع لمساعدتي، وحلّ المشكلّة. وقالت المسؤولة:

- ركّاب الدرجة الأولى لم يدخلوا إلى الطائرة بعد.. تدخلين معهم. الدرجة الأولى إلى أمريكا تكلّفتها باهظة، ولكن ما باليد حيلة.

انتظرت أن تطلب مني فرق السعر، وإذا بها تقول: تفضّلي! وتفضّلت. كانت كراسي الدرجة الأولى ضخمة وفخمة، فبلعت ريقي.. لا بدّ أن "يطردوني" إلى قسم سردين الدرجة السياحيّة! ولم يحصل!

بقيت أتدلّل عليهم في الدرجة الأولى، والمضيفات يأتين بكلّ ما لذّ وطاب من الطعام والشراب.

وكانت رحلة العمر.

أين أسكن؟ وكيف أجد ثمن الطعام؟

وصلت إلى الولايات المتّحدة، ونزلت في فندق إلى أن وجدت شقّة مناسبة وانتقلت إليها. دفعت الإيجار والتأمين وقسط الجامعة من المبلغ الذي كنت أحمله نقداً، وإذا بالمبلغ يطير سريعاً. لا بأس! أنا عندي شيكات على حسابي البنكيّ في بيروت. أذهب إلى البنك، وأصرفها.

تجمّدت أمام موظّفة البنك كالصنم عندما قالت لي: "إنّ الصرف ليس فوريّاً، إذ عليهم أن يحصّلوا الشيك أوّلاً قبل إعطائك المبلغ". سألتها عن المدّة فقالت: "ثلاثة أسابيع". وعندما لاحظتْ أنّ مصدر الشيك بيروت، أضافت:" ربّما أكثر".

قلت لنفسي: الحمد لله إنني أملك إسوارة ذهبيّة، أبيعها وأحلّ مشكلّتي. ذهبت إلى محالّ كثيرة، لكنّ أحداً لم يقبل أن يعطيني أكثر من ٤٠٠$، رغم أنّ ثمنها كان أكبر من ذلك بكثير. لا يهمّ. المهمّ أن يكون معي بعض المال إلى حين تحصيل الشيك. فرحتي لم تكتمل، فقد كان هناك من يراقبني، وما إن خرجت من المحلّ حتى نشل حقيبتي وانطلق هارباً. والطريف أنه قبل أن يهرب، فتح الحقيبة ورمى لي بجواز السفر والأوراق وحتّى الكاميرا! كان نشّالاً مع بقيّة من تهذيب وضمير واحترافيّة في العمل!

كنت في شارع مزدحم أصرخ: !help ... !help ولا مَن يكترث. جاء الشرطيّ، وعندما علم بأنّ المبلغ المسروق هو ٤٠٠$ قال ساخراً منّي:

- تحملين ٤٠٠ $؟! أنا شرطيّ ولا أجرؤ على أن أحمل أكثر من ١٠$!

وأفهمني أنّ عمليات النشل تحدث كلّ يوم، وأن الأمل باستعادة المبلغ شبه معدوم.

***

أنا وحدي في أمريكا غاضبة ومفلسة وقلقة.. ولم أكن أدري أنّ هناك المزيد.

وجدت كتلة مقلقة، وعليّ أن أزور الطبيب.. وكان رأيه أن يجري استئصال الكتلة وتحليلها، فبقاؤها ليس محبّذاً حتّى لو كانت سليمة.

عمليّة؟! وأنا لم أشترك بعدُ في التأمين الصحّيّ، وتأمين الجامعة لا يغطّي عمليّة كهذه. ذهبت إلى قسم الإقراض الطلاّبيّ في الجامعة، وطلبت سلفة، وأخبرت المسؤولة عمّا حصل معي في البنك، وعن تعرّضي للنشل، وعمّا شخّصه الطبيب، وأريتها إثباتات عن كلّ ما ذكرتُه.. والسلفة هي لأسابيع فقط، إلى حين صرف الشيك. كان وجهها حجريّاً جافّاً لئيماً، ورفضت أن توافق على إقراضي دولاراً واحداً.

وكان عليّ أن أنتظر. لكنّ أوّل الشهر جاء، ولم يكن تحصيل الشيك قد أُنجِز.

ذهبت إلى صاحبة البيت أشرح لها ما حصل معي لتؤجّل تسديد الإيجار بضعة أيّام، وإذا بها تصرخ بي:

- إمّا أن تدفعي، وإمّا أن أرمي بك أنت وأغراضك إلى الشارع!

وجلست في تلك الليلة وأنا أشعر بالمهانة، بالغضب، بالخوف من الكتلة التي قد تكون خبيثة. كنت وحيدة، مفلسة، قلقة، وبدأت ألوم نفسي.

"ما الذي أتى بي إلى هنا؟ عندي شهادة علميّة عالية من الجامعة الأمريكية في بيروت. عندي معهد دورات تعليميّة في بلدي. عندي حساب بنكيّ جيّد بعد أن عملت أربع سنوات في "أرامكو"، فلماذا آتي إلى الولايات المتّحدة، وأتعرّض لكلّ هذه المعاناة؟!".

بقيت طوال الليل أفكّر: إذا نفّذت صاحبة البيت تهديدها فماذا أفعل؟ كلّ ما كان معي دفعته على الطعام والضروريّات؛ حتى إنّني لا أجد معي ما أشتري به عشائي. أين سأسكن؟ كيف سآكلُ وأشرب إلى حين وصول المال؟

لم أنم تلك الليلة، ولم أشعر برغبة في الذهاب إلى الجامعة. أصلاً لم أكن أملك أجرة الباص إلى هناك.

ذهبت سيراً على الأقدام إلى البنك البعيد لعلّ وعسى.. وكم كانت فرحتي عظيمة عندما علمت أنّها فُرجت، وتمّ تحصيل قيمة الشيك.

أجريت العمليّة، وجاءت النتيجة مطمئنة؛ فالورم كان سليماً.

كانت أزمة ومرّت.. ولكنّها تركت مرارة من الصعب أن تُنسى.

في معسكر الفتوة عام ١٩٦٢ ، كنا اول شعبة حادي عشر في المحافظة ،
الصورة العليا مع طالبات دار المعلمات

فاصفور!

"فيها تطلع "داكطورا"، وبتروح إنكليزي لتطلع معلّمة! مش قلتلكن: فشّ عندا فاصفور؟!".

عام ١٩٦٢.. كنّا قد نجحنا إلى الصفّ الحادي عشر.. يومذاك، لم يكن في محافظة السويداء حادي عشر للبنات! ولأنّ عددنا كان قليلاً، فقد تمّ افتتاح شعبة "علميّ" فقط.. صحيح أنّ معظمنا اختار الأدبيّ، ولكنّ بنات "العلميّ" ثروة للوطن، فقد تصبح الواحدة منهنّ " داكتورااا ".. "مهندسيييي"، "صيدلانيّي ".. أمّا بنات الأدبيّ (يا حرام!) يا دوب الواحدة تطلع (معلمة!).

الموادّ العلميّة لم تكن تستهويني.. لم أكن أحبّ أن أكرّر ما قاله فيثاغورث ولافوازييه وغيرهما. كانوا يحبسونني في صندوق نظريّاتهم، وكنت أريد أن يكون لي رأي، حلم، خيال، فضاء رحب.

كنت أذهب إلى المدرسة بحكم العادة، أجلس إلى جانب الشبّاك أتابع قصص الأمّهات اللواتي كنّ ينتظرن دورهنّ في المستوصف المجاور. كان المدرّس يتأفّف من ضجيجهنّ، أمّا أنا فكنت أتابع حكاياتهنّ باستمتاع، وأنزعج من ضجيج المدرّس! وجاء الجلاء المدرسيّ بهيجاً مثل بستان ربيعيّ! فبينما كانت الجلاءات الأخرى مملّة، وكئيبة، وبلون واحد، جاء جلائي مغطّى بمنمنمات جميلة من دوائر حمراء تسرّ الناظرين! أمسك المدرّس جلائي

ليعرضه على الصفّ كما يستعرض تحفة، وإذا بصوت إحدى الزميلات يزعق من آخر الصف:

- "فشّ عندا فاصفور، أوستاذ!".

كنّا قد درسنا أنّ وجود الفوسفور ضروريّ لفعالية المخّ، ومن دون الفوسفور يفقد المخّ قدرته على العمل! وأُعجبت الزميلة بتعليقها خاصّة عندما انطلق الكورال:

- .. هأهأهأ!

كانت نقطة تحوّل. نفضتُ الغبار عن الكتب العلميّة، وبدأت الدراسة. طبعاً الدروس الخاصّة لم تكن معروفة على أيامنا، ولكنّي اعتمدت على نفسي، وابتدأت أدرس بتركيز.

***

كنّا في "المعسكر الصيفي" عندما جاء من يقول لنا: طلعت النتائج! "مين هي الأولى؟" نظر الجميع باتّجاه نهيلة."مين رسبت؟ " نظر الجميع باتّجاهي. وكم كانت صدمة للجميع عندما علموا من كانت الأولى! نجحت في الشهادة الثانويّة أيضاً بتفوّق، وعلمت الزميلة، وبقيت مصرّة على موقفها -: "علاماتها بيدخّلوها طبّ وتطلع"داكطورا"، وبتروح إنكلّيزي!؟ مش قلت لكنّ:" فشّ عندا فاصفور؟!".

مَنْ لإكرام الضيف غير أبو نمر!

مضافة أبو نمر عامرة هذا اليوم بوجوه المحافظة، وكلّهم من أحبّائه. كم كان يحلم بأن يستقبلهم جميعاً في مضافته، ليقوم بواجب التكريم! كان أبو نمر سعيداً بوظيفته، يمارسها بشغف واستمتاع، يذهب إلى عمله وهو يرسم في ذهنه برنامج الاحتفال. واليوم! اليوم غير كلّ الأيام! حدث الانفصال، واليوم جمعوا "عملاء عبد الناصر" في قاووشه. لم تكن تعني "أبو نمر" وحدةٌ أو انفصال؛ كان كلّ همّه أن يمارس هوايته، أن ينفّس عن حقد معتّق، وفوق ذلك يأخذ راتباً!

تأمّلهم واحداً واحداً، استعاد العبارات التي كان يسمعها: "خلّف الملعون جرواً.. طلع ألعن من أبيه!". والده كان جاسوساً لفرنسا، وكان السبب في استشهاد العديد من الثوّار. وهو ورث المهنة: في المدرسة كان يتجسّس على رفاقه، وينقل أخبارهم إلى المدير، ولكنّهم كانوا "يأكلون" مسطرة خفيفة على أيديهم، ثمّ ينتظرونه "بعد الحلّة"، لـ"يأكل قتلة.. كُمّ وذيل". كان محتقراً منبوذاً تماماً كما كان أبوه.

هذه الوظيفة فاقت كلّ أحلامه. كانت وظيفته تعذيب المعتقلين.
كان لا يكفّ عن التعذيب إلاّ عندما لا يعود جسد المعتقل قادراً على الاحتمال، فينطلق اللسان مسترحماً مترجّياً، وتنطلق الحناجر في صراخ مجنون. كان يستمتع بإذلالهم، كما عاش حياته ذليلاً.

في ذلك اليوم أتعبه ذلك الشابّ الصغير: لم يكن يصرخ ولم يكن يسترحم. عذّبه بوحشيّة، زاعقاً به بصوتٍ يشبه فحيح ثعبان، والعيون الجاحظة الحمراء تنفث نيران حقد أحمر.

- "ولك إنت جِنْ!؟ يخرب بيتك، صرِّخ! تدخّل عليّي! ولك بدّي عذّب فيك لتموت أو تترجّاني!".

لكنّ الشابّ كان يعضّ شفته، ويلجم صرخة مجنونة أو كلّمة استرحام. كان خيط أحمر ينساب من شفته، ويقطر من أسفل ذقنه، ولكنّ رأسه بقي شامخاً ومتحدّياً، وعيناه لم تنكسرا، بقيتا تحدّقان في وجه أبو نمر بتحدٍّ وكبرياء.

خرج المعتقلون.. ومرّت السنوات.

* * *

المستشفى في حالة استنفار: سائق سكران صدم سيّارة أخرى، والجرحى عشرة. اليوم يوم جمعة، ولا يوجد سوى الطبيب المناوب. أنين.. صراخ.. وصوت يصيح:

- "منشان الله! دخل رجليكن! ببوس إيديكن! عبموت!".

هذا الصوت حرّك ذكريات أليمة في تلافيف ذاكرة الطبيب الشابّ.. صوت يشبه فحيح ثعبان. نظر باتّجاه الصوت.. كان الوجه الذي لازمه في كوابيسه:

عينان حمراوان جاحظتان متوحشّتان.. هو.. إنّه هو.. استعاد عبارة أبو نمر الزاعقة: - "ولك قول لي: "ببوس إيدك".. ولك قول لي: "ببوس صرمايتك".. ما رح إتركك لتترجّاني وتبوس صرمايتي!".

تعارفت العيون بعد كلّ تلك السنين، ولكنّ أبو نمر كان هذه المرّة هو الذي يتذلّل:

- "أني عبد مأمور يا دكتور.. منشان الله! عبموت من الوجع.. أعطيني إبرة مسكّن.. ببوس إيدك.. ببوس صرمايتك!".

ضيوف يحكون حكاية

كانوا قد انتهوا لتوّهم من تناول طعام الغداء، عندما سمعوا طرقاً على الباب. فتحوا الباب: سيّارة غريبة، ووجوه غريبة، وشابّ يسلّم ثمّ يقول: جئنا من حمص لنخبركم قصّة.

وقبل أن تقولوا: لماذا لم يحاولوا الاتّصال هاتفيّاً، أو إرسال رسالة؟ اسمعوا القصّة أوّلاً، ثمّ احكموا!

القصّة حقيقيّة، والزيارة للغرباء الذين حضروا من حمص إلى أمّ الرمّان في محافظة السويداء، حدثت في ستّينيّات القرن الماضي، والراوية هي السيّدة أمّ أيمن.

* * *

يتحلّق الجميع حول الغرباء يتابعون حكايتهم.

كان ذلك أيّام الحكم التركيّ.. دخل صاحب البيت في أمّ الرمان إلى مستودع الحبوب، فشعر بوجود أحد في المستودع، بين الأكياس، كان الشابّ الغريب الصغير السنّ يرتجف من الخوف والبرد. نظر إلى صاحب البيت وقال: - "أنا داخل عليك، ما تسلّمني! أنا هربان من الأتراك!".

في ذلك الوقت كانت تركيّا تسوق الشباب العرب، لتخوض بهم حروبها الاستعماريّة، وكانت تتعامل بوحشيّة شديدة مع كلّ من يحاول التملّص من الخدمة. (فراري يا شحّاري.. مالي غير الخازوق!)... جبل حوران لم يخضع

لجيوش تركيّا التي حاولت أن تسيطر عليه بتجريد الحملة تلو الأخرى.. وبقي عصيّاً عليها.

كانت حماية الهارب تعتبر تحدّياً لتركيّا، وقد تجلب لفاعلها الويلات، ولكن كيف له أن يتخلّى عن هذا المسكين، ويسلّمه للخازوق؟! لم ينم تلك الليلة.. وفي الصباح كان قد قرّر.

أخذ بعض الملابس الجبليّة للشاب، وطلب منه أن يلبسها، وأن يدّعي الخرس لكيلا ينتبه أحد للهجته الغريبة، فالشابّ كان من جبلة على الساحل السوري، وأخبر أهل البلد أنّ هذا الشابّ هو قريب لبنانيّ أخرس، جاء للعمل في القرية.

بقي الشابّ عاماً بعد عام في بيت مضيفه، يعمل معه في الزراعة دون أن يطالب بأجر، فقد كان يكفيه أنّه قد أُنقذ من براثن الأتراك. أربعة عشر عاماً مضت؛ إلى أن تحرّرت سورية من حكم الأتراك. جاء صاحب البيت مبشّراً الشابّ، وعارضاً عليه أن يوصله إلى حيث يمكن أن يجد طريقه إلى جبلة.

قبْل أن يذهب، أعطاه صاحب البيت صرّة فيها ليرات ذهبيّة، وقال له: هذه أجورك عن الأعوام التي عملت فيها عندي، جمعتها لك ليراتٍ ذهبيّة، فأنا ليس من شيمتي أن أستغلّ ظروفك لتعمل طوال هذه السنوات دون أجر.

عاد نعيم إلى جبلة وتزوّج شابّة من حمص، وأصبح "أبو حكمت"، واستقرّ مع زوجته في حمص. وقبل أن يتوفّى روى القصّة لأبنائه وأحفاده، فجاؤوا ومعهم لوحة مكتوب عليها: "يا ربّ بارك هذا البيت!"، واللوحة لا تزال لدى صاحبة البيت التي روت لي القصّة.

***

توفّي أبو حكمت، وتوفّي الرجل الذي أجاره، ولم تمت القصّة، بل بقيت مثل بذرة صالحة تنتقل من جيل إلى جيل، تحمل محبّة وإنسانيّة ووفاء.

المصاري وسخ الدنيا

شيخ العائلة ملأ معدته بالمنسف الدسم وبالوعود الأكثر دسماً، وبدأ يتجشّأ النصائح في وجه الشابّة التي التجأت إليه شاكية باكية. - "يا بنتي! المصاري وسخ الدنيا، بتزعّلي إخوتك منشان المصاري؟! مش عيب؟! هذول إخوتك، دمك ولحمك، ما بيتخلّوا عنّك. وبعدين، إذا احتجتِ شي أني رقبتي سدّادة!".

حاولت الشابّة أن تشرح شكواها: الأهل تركوا الكثير، وهي لا تطلب إلاّ أقلّ القليل، شيئاً ممّا تركه الأهل، شيئاً يحميها من غدر الأيّام.

ولكنّ الشيخ كانت مصلحته مع إخوتها، وإخوتها أغروه بالمناسف والهدايا والوعود، للضغط على الشابّة كي تتنازل عن حصّتها من الميراث. ماذا كان بإمكانها أن تفعل؟

- إخوتها مصرّون على حرمانها من الإرث.
- الأمّ تقف في صف أبنائها الذكور.
- المجتمع ينظر إليها باستهجان لطلبها (الغريب!).الشيخ الذي اعتقدت أنّه سينصفها، ويكلّم إخوتها بشأنها ارتخى لسانه أمام من ملؤوا كرشه.

المجتمع يَعيب على المرأة أن تُغضِب إخوتها من أجل وسخ الدنيا، ولا يَعيب على الرجل أن يخسر أخته من أجل وسخ الدنيا! وقّعت التنازل، ومرّت الأيّام.

الشابّة لم تعد شابّة فقد اقتربت من الستّين. إخوتها ما إن حصلوا على التنازل حتى أهملوها. (أنعموا!) عليها بـ(غرفة مقاطيع) عفنة نتنة، وبالراتب التقاعدي لوالدها المتوفّى، الذي لا يتجاوز بضعة ألوف من الليرات.

إخوتها يتنعّمون بما سرقوه من ميراثها، وهي تنقّب في حقيبتها كلّ يوم بحثاً عن ليرات تشتري بها ربطة خبز أو علبة دواء.

تذهب إلى الشيخ شاكية. رقبته السدّادة كانت قيمتها خمسمئة ليرة ممزّقة وسخة، رماها إلى المرأة وهو يطلب إليها أن لا تعود مرّة أخرى؛ فهو شيخ عنده مسؤوليّات، ومواعظ يلقيها حول الأخلاق والصدق، ولا وقت لديه ليضيّعه عليها.

لو لم تكن من عائلة معروفة لخرجت إلى الناس باحثة عمّن يساعدها، أو على الأقلّ عمّن يصغي لشكواها. ولكن، هل تفضح أهلها؟

لكلّ من يُطلب إليها التنازل عن حقّها في الميراث، بدعوى أنّ المال وسخ الدنيا، أقول:

- الظلم هو وسخ الدنيا!.
- الطمع هو وسخ الدنيا!
- التخلّي عن الضعيف هو وسخ الدنيا!
- التمسّك بموروثات نتنة، منها أنّ "المرأة لا ترث"، هذا هو وسخ الدنيا!

كوني قويّة! قولي: لا! زمن العبوديّة انتهى. وإذا لم تتصرّفي على هذا الأساس، فالعبوديّة تليق بك.

المصاري وسخ دنيا

منى سلامة عبيد
سوريا السويداء

منوعات

شيخ العائلة ملأ معدته بالمنسف الدسم وبالوعود الأكثر دسماً. وبدأ يتجشأ النصائح في وجه الشابة التي التجأت إليه شاكية باكية.

- يا بنتي المصاري وسخ الدنيا.. بتزعلي إخوتك منشان المصاري؟ مش عيب؟ هدول إخوتك دمك ولحمك ما بيتخلوا عنك. وبعدين إذا احتجت شي أني رقبتي سدادة.

حاولت الشابة أن تشرح شكواها. الأهل تركوا الكثير، وهي لا تطلب إلا أقل القليل.. شيئاً مما تركه الأهل.. شيئاً يحميها من غدر الأيام.

ولكن الشيخ كانت مصلحته مع إخوتها. وإخوتها أغروه بالمناسف والهدايا والوعود. للضغط على الشابة كي تتنازل عن حصتها من الميراث.. ماذا كان بإمكانها أن تفعل؟

- إخوتها مصرون على حرمانها من الإرث.
- الأم تقف في صف أبنائها الذكور.
- المجتمع ينظر إليها باستهجان لطلبها (الغريب!).
- الشيخ الذي اعتقدت أنه سينصفها، ويكلم إخوتها بشأنها ارتخى لسانه أمام من ملأوا كرشه.. المجتمع يعيب على المرأة أن تغضب إخوتها من أجل وسخ الدنيا، ولا يعيب على الرجل أن يخسر أخته من أجل وسخ الدنيا!

وقعت التنازل.. ومرت الأيام.

الشابة لم تعد شابة فقد اقتربت من الستين.. إخوتها ما إن حصلوا على التنازل حتى أهملوها.. (أنعموا!) عليها بغرفة مقاطيع عفنة نتنة، وبتقاعد والدها المتوفى والذي لا يتجاوز بضعة ألوف من الليرات.

إخوتها يتنعمون بما سرقوه من ميراثها. وهي تنقب في حقيبتها كل يوم بحثاً عن ليرات تشتري بها ربطة خبز أو علبة دواء.

تذهب إلى الشيخ شاكية.. رقبته السدادة كانت قيمتها خمسمئة ليرة ممزقة وسخة، رماها إلى المرأة وهو يطلب منها أن لا تعود مرة أخرى؛ فهو شيخ عنده مسؤوليات، ومواعظ يلقيها حول الأخلاق والصدق.. ولا وقت لديه ليضيعه عليها.

لو لم تكن من عائلة معروفة لخرجت إلى الناس باحثة عمن يساعدها.. أو على الأقل عمن يصغي لشكواها.. ولكن هل تفضح أهلها؟! إلى كل من يطلب منها التنازل عن حقها في الميراث بدعوى أن المال وسخ الدنيا أقول :- الظلم هو وسخ الدنيا .

- الطمع هو وسخ الدنيا.
- التخلي عن الضعيف هو وسخ الدنيا .
- التمسك بموروثات نتنة منها أن المرأة لا ترث.. هذا هو وسخ الدنيا.

كوني قوية.. قولي لا.. زمن العبودية انتهى.. وإذا لم تتصرفي على هذا الأساس فالعبودية تليق بك.

بيت رجال ولا بيت مال!

كنت أسير بالقرب من دوّار الشعلة، عندما سمعت صوتاً مألوفاً يناديني. نظرْت: كانت أمّ نضال.

أمّ نضال، المرأة السبعينيّة التي ما زالت تنتقل من بلد إلى آخر، ومن بيت إلى بيت، لتعمل في التنظيف، مذ كانت طفلة يتيمة في العاشرة. منذ ما يزيد على عشرين عاماً، جاءت فرِحة، تزفّ لنا خبر زواج ابنتها الوحيدة من ابن أختها، وتروي تفاصيل العرس المطنطن، وبعد تسعة أشهر جاءت "تزفّ" خبراً آخر، لقد أنجبت الغالية "صبي"! سألتها ماذا يعمل ابن أختها، فأجابت: "يا ميمتي كيف بدّو يشتغل؟! ما هوّي صحتو مش مساعدتو، يا دوب يطلّع ثمّن بوكيت الدخان!"

قبل انقضاء العام، جاءت البشرى الأخرى: صبيّ آخر، وعندما سألتها كيف ستصرف على الأطفال والوالدان لا يعملان؟ حدّقت بي باستغراب:

- "بتآمنيش بالله؟ الولد بيخلق وبتخلق رزقتو معوا!".

جاء الثالث، وكان تفسيرها جاهزاً:

- "الغالية عمبتجيب صبيان.. صبيان.. صبيان! بيت رجال ولا بيت مال! ويستمرّ التفقيس.. واحداً بعد الآخر.. ويا لسعادتها! كلّهم صبيان!

مرّت الأيّام، وكبر الصغار وسألتها:

- "صهرك عبيشتغل؟".

-"لا، يا ميمتي، ما هوّي فاهوش..ظهرو بيوجعو!".

- "بنتك بتشتغل؟".

-"لا، يا ميمتي، يا دوب تلحّق على هالولاد!".

-"الأولاد بيكونوا صاروا شباب، بيشتغلوا؟".

- "لا يا ميمتي، ما هنّي زغار، أطافيل!" .

- "ابن أختك بعدو بيدخّن؟".

- "يا ميمتي، متولّع بهالمقرودة السّكارة، أبيقدرش يتركها!".

- "انشاء الله الأولاد ما يكونوا تعلّموا هالعادة؟!".-

- "لكان شو؟!

- كلّهن بيدخنوا حتّى الزغير.. وأمّهن صارت تدخّن كمان! شو بيطلعلاش؟!".

تعود المرأة السبعينيّة آخر النهار، تلقي بعظامها النخرة على الفراش، تنظر إلى أصابعها التي أصبحت مثل إشارات استفهام متنافرة، إلى آثار الكسور على يديها ورجليها، كسور كانت تصاب بها وهي تتسلّق السلالم لتنظّف الجدران والسقوف بالصابون الزلق. تشعر بثقل في رئتيها من كثرة ما استنشقت من أبخرة الكلور نهاراً، وسجائر الغالية وأبناء الغالية ليلاً. آلام في كلّ جسدها العجوز. ستّون عاماً وهي تقوم بهذا العمل المضني يوماً بعد يوم. تتناسى آلامها. لقد اشتغلت اليوم؛ استطاعت أن تؤمّن للغالية وللأطافيل "بوكيتات الدخان".

تغمغم برضا:

"بيت رجال ولا بيت مال"!

هاتي السكّين!

كان ريف محافظة السويداء عامراً بالغزلان والأرانب البرّيّة، وطيور الكُرْكيّ، وآلاف المخلوقات البرّيّة النادرة والجميلة، وكان الصيّادون يتوافدون من سورية وخارج سورية لممارسة هواية (القتل)، وتدمير الحياة البرّيّة

* * *

وأتذكّر أنّ أحد الصيّادين العائدين من رحلة صيد (موفّقة!) مرّ على بيتنا ليتباهى بصيده الوافر من الغزلان والطيور، وليهدينا بعضاً منه، وقال لوالدتي:

-"حسبت حسابكن بهالغزال، اتصيّدت كثير!".

ومع أنّ والدي كان بطبيعته هادئاً، لكنّه أمام تلك المجزرة أشبعه لوماً وتقريعاً. وأتذكّر صوت والدي وهو يقول لي:

- "روحي على المطبخ جيبي سكّين!".

ولأنّني قلّما شاهدت والدي منزعجاً ومنفعلاً بهذا الشكل، فقد جمدت مكاني متسائلة ماذا يريد أن يفعل بالسكّين؟! أمسك والدي طائراً له ريش أزرق غاية في الجمال والروعة، فتح حوصلته وصاح بالصيّاد:

- انظر ماذا فعلت!؟

في حوصلة الطائر كانت عقارب صغيرة، وأمّ أربع وأربعين، والكثير من الحشرات الضارّة.

وصاح به:

- أنتم تقتلون أصدقاء البيئة والفلاّح! عندما تنقرض الطيور التي تتغذّى على الحشرات سوف يضطرّ المزارع إلى استعمال أدوية الرشّ السامّة والتي تضرّ الإنسان والبيئة.

وشعر الصيّاد بالندم على ما فعله، ووعد أن لا يعود إلى الصيد مجدّداً وقد فعل!

وبقي ملتزماً بوعده، حتّى.. صباح اليوم التالي!

كان مجرماً.. الله يرحمه!

وعندما رأت الدهشة على وجهي لهذا التعبير، وأنّ حواجبي قد أصبحت في قمّة رأسي، أضاف:

- "شو فيّ قول غير هيك؟ يلّي بيبيع بناته وهُنّي بالمرحلة الابتدائية لرجال ختياريّة أغروه بالمصاري، ما بيكون مجرم؟ بَسْ هوّي والدي، ما فيّ إدعي له بغير الرحمة!".

شابّة جميلة وذكيّة، التقيت بها اليوم، وروت لي قصّتها المؤلمة: إنّها جدّة لسبعة أطفال، كانت قد زُوّجت، وحملت، وهي في الرابعة عشرة! أرتني أسنانها التي تساقط معظمها بفعل الحمل والولادات المتعاقبة، وهي في هذه السنّ الصغيرة. كما روت لي معاناة أخواتها، فقد زُوّجن بالإكراه، ورغماً عن أنوفهنّ، وأنف الأمّ المغلوبة على أمرها.

سأقول ما لم تستطع أن تقوله تلك الشابّة مع أنّها تتلّهف على قوله، لأنّه مهما كان فهو والدها:

- كان مجرماً.. عسى أن تحترق عظامه في نار جهنّم! ومعه كلّ من يتعامل مع المرأة بهذه القسوة، وهذا التخلّف. وأشكر الله على أنّ ظاهرة تزويج القاصرات تراجعت، وتبقى حالات قليلة ومتفرّقة في المحافظة.

ألستم معي في الدعوة إلى أن ينبذ المجتمع كلّ من يتعامل مع النساء بهذه العقليّة المتخلّفة المتحجّرة؟ وفي السعي إلى أن تكون قوانين الأحوال الشخصيّة والتعليم الإلزامي حازمة مع هذه السلوكيّات الشاذّة؟

مهملة!

عندما استلمت السيّدة المثقّفة أمانة المكتبة في المدرسة، حرصتْ على نقل شغفها بالمطالعة إلى طلاّبها، فكانت تدخل الصفّ مكان كلّ مدرّسة تتغيّب، وهي تحمل بعض الكتب المختارة، لتشجّع الطلاّب على استعارتها وقراءتها. ولم تكتفِ بذلك، بل شجّعت الطلاّب على عمل مجلّة حائط، يضعون عليها اقتباسات، أو ملخّصات، أو آراء حول الكتب التي قرؤوا. كما كانت تناقشهم، وتعمل على توسيع مداركهم، وتحرص على توجيههم إلى قراءة كتب علميّة وأدبيّة مناسبة ومفيدة.

بعد سنوات تقاعدت السيّدة، وأرادت تسليم (العهدة)، فإذا باللجنة تجد إهمالاً وتقصيراً شديداً منها؛ وذلك لأنّ الكتب كانت بحالة سيّئة جدّاً، إضافة إلى أنّ بعضها كان مفقوداً، فالاستعارة الدائمة لها أتلفتها؛ على الرغم من حرص السيّدة على إصلاحها قدر الإمكان. وكان عليها أن تسدّد من راتبها التقاعديّ قيمة كلّ ما تلف وما فُقد من الكتب، علماً أنّ ذاك الراتب الهزيل يذهب نصفه ثمن أدوية لها.

زميلتها (الحربوقة) كانت تُبقي المكتبة مقفلة، وكلّما طلب منها أحدهم كتاباً قالت: "عم نعمل جردا!" ويبدو أنّه حصل للمكتبة حالة "جرد مزمن"، وفقد الطلّاب الأمل من انتهاء الجرد! وكانت هذه السيّدة تمضي الوقت إمّا في بيتها أو في جلسات "المتّة"، والقلقلات النسائيّة. وعندما سلّمت المكتبة، وجدتها اللجنة بحالة ممتازة!

أمينة مكتبة (مهملة!) تعاقَب بأقسى العقوبات، وأخرى حريصة على أن لا تدع يد مخلوق تلمس مكتبتها، تُقابَلُ بالتقدير والإعجاب.

تتساءل السيّدة (المهملة!)، وأتساءل معها: هل المكتبة قطعة ديكور تزيينيّة مكتوب عليها: "ممنوع اللمس"!؟

زيارة الأكابر!

- "يا عيب الشوم على جوزها شو بلا شرف!".

قالتها بعد أن أكملت الحكاية.. وعندما قلت لها:

- على العكس، (برافو) عليه.. معه كلّ الحق!

بدأت ترمّش بعيونها غير مصدّقة، وانطلقت خارجة وهي تصيح:

- بخاطرك.. بخاطرك.. نسيت طبختي على النار!

***

ما حدث، كما فهمت، أنّ أحدهم اشترى بندقيّة جديدة، وأراد أن يستعرض مهارته في الرمي أمام الجمهور، فاختار أن يقصد سدّاً قريباً، حيث تذهب العائلات للتنزّه يوم الجمعة.

رصاصة طائشة من بندقيّته، أصابت سيّدة كانت تجلس مع زوجها وأطفالها، فقتلتها أمام أطفالها، وتركتهم أيتاماً، وفي ذاكرتهم جرح لا يندمل.

ولكنّ للضيفة اهتمام آخر غير الضحيّة والأطفال، فهي تتابع بانبهار :

"إجوا هالأكابر.. بسّ لو تعرفي مين ومين.. وحكوا مع أهلها..

أهلها كانوا أوادم وولاد حلال، وقبلوا يتنازلوا.. إلاّ هالحقير جوزها: كفّحهن ولا كان يقبل.. شفتي دخلك ما أقلّ شرفو!؟"

***

التنازل عن الحقّ الشخصيّ يُضعف الحكم الذي يجب أن يكون رادعاً، فمن المسؤول؟

هل هو الجهل والخضوع الأعمى (للأكابر)؟

هل الحقّ على (الأكابر) الذين ما كانوا ليتنازلوا عن حقّهم الشخصيّ لو أنّ الضحية كانت من أسرة أحدهم؟

أم هو القانون الذي يجب أن يضرب بيد من حديد على مثل هذه السلوكيّات العابثة، وغير المسؤولة؛ سواء تنازل الأهل أم لم يتنازلوا؟

تمرين مضمون للتغلّب على التعب

تستيقظين صباحاً، تحاولين النهوض، أعضاء جسمك جميعها تكتّلت وأعلنت الإضراب! في اليوم السابق كنت تحضّرين المكدوس، فسهرت حتّى منتصف الليل. ذهبت إلى النوم مرهقة، لكنّ هذا القلب الحنون الذي لا يرحمك "ينقب جلدك". تنهضين من السرير وتعودين إلى المطبخ. هل من المعقول أن يعود الزوج والأولاد ظهراً فلا يجدون غير النواشف والشُّزْ مُزْ؟!

تحضّرين طبخة معتبرة. الجلي لا ينتظر إلى الصباح، فقد يستضيف في الليل مخلوقات غير مرغوب فيها.

لا تنتهين قبل الثالثة صباحاً.. في السادسة تزعق بك ساعتك البيولوجيّة زعقتها الداعشيّة. أمامك وظيفة، لو تأخرت دقائق "لجَقَركِ" المدير، وذهب يبرطم:

- "قلت لهم تبعثوليش نسوان!".

ثمّ من سيجيب أولادك وهم يتصايحون:

- "أمّي وين قميصي؟ ما خلص الشاي؟ تأخّرت.. مش ملاقي كتاب الفيزيا، طلع بإيدك؟".

ولا يهمّك، الدكتور أوز سيقدِّم لك تمريناً رياضيّاً عظيم الفائدة!

تعودين ظهراً، تضعين الطبخة التي تفوح رائحة توابلها الشهيّة في البناية، ما يجعلها مميّزة هو ما تضيفينه إليها من حبّك وقلبك وحنانك. يأكلّون دون

أن يقول لك أحد: شكراً، أو "هالأكلّة شو طيّبة!". الكلام اللطيف هو للغرباء. أمّا الأمّ فمجرّد أنّ زعيق احتجاجهم وتذمّرهم لا يصل إلى السماء؛ فمعنى ذلك أنّ الأمور على ما يرام. هي أمّ ولا تطلب الشكر. يكفيها أن تراقب صحونهم وهي تفرغ وتمتلئ، لتعلم أنّ الطبخة قد نالت الإعجاب.

تحلمين بساعة من النوم بعد الظهر، ولكنّ الصحون مكدّسة في المجلى، ولديك عشرات الأعمال المتفرّقة الأخرى.

وعدتُك أنّ الدكتور أوز سيدلّك على تمرين رياضيّ مفيد.

- التمرين: قف بظهر مشدود.. تخيّل نفسك طائراً على وشك القيام برحلة طويلة ومتعبة. تخيّل أنّ ذراعيك جناحان. الطائر يصفّق بجناحيه ليستجمع قواه قبل الطيران. حرّك ذراعيك إلى الأعلى وإلى الأسفل، كما يفعل الطائر، لمدّة ثلاثين ثانية، وسوف تجد أنّك استعدت نشاطك.

ولكن انتبهي، سيّدتي، هذا التمرين ليس لك!

هذا التمرين لزوجك وأولادك "الممطمطين ومادّين رجليهن". أنت اذهبي إلى النوم، فهذا حقّك وقولي "للرَّبع": - "الدكتور أوز بيقول لكن: صفّقوا بجوانحكن.. وطيروا.. عالمجلى!".

يا زلمة! معقول آخذ منكم مصاري؟!

تحذير: إذا سمعتم هذه العبارة فانتبهوا، خاصّة إذا كنتم قادمين من بلاد الاغتراب، و"الله منعم عليكم"، فقد تكون هذه العبارة مقدّمة لعمليّة نصب "معتبَرة"! حدّثنا عيسى بن هشام قال:

كان عندي منظّم كهربائيّ ممتاز، ولأنّني خبير بالكهربائيّات، حرصت وقت شرائه على أن تكون قِطعه كلّها من أفضل الأنواع. لاحظت مؤخّراً أنّه لم يعد يعمل بالكفاءة المعهودة، فسألت عن اختصاصيّ موثوق، وجاءني من قال:

- "نسيبي بيشتغل بهالمجال، تعال نأخذلو المنظّم، ونشوف رأيه!".

- نظر الخبير إلى المنظّم وقال:

- "بدّي أفتحو وأفحصو على مهلي، وطبعاً أنا لا يمكن آخذ أجرة منكم، ولَوّ! معقول؟!"

الرجل فتح المنظّم وفحصه "على مهله"، وجاء بالجواب التالي: - "المنظّم بحاجة إلى قطعة (كذا)، وثمنها ثمانية آلاف ليرة، وطبعاً، كما وعدتكم، أنا سأركّبها ببلاش، أنا لا يمكن آخذ أجرة منكم، ولوّ! معقول؟!".

صاحب المنظّم ذهب إلى سوق الكهرباء، وتأكد من أنّ ثمن القطعة لا يتجاوز مئاتٍ من الليرات، والرجل وجد أنّ الله قد "أنعم عليه" بزبون من الذين "أنعم الله عليهم"، فهل يرفض النعمة، ويترك الفرصة تضيع منه؟

* * *

صاحب المنظّم شعر بالكثير من الامتعاض والاشمئزاز من هذا التصرّف، فقال له: أريد المنظّم كما هو، ولا أريد إصلاحه.

باعتقادكم، ما الذي حصل؟

عاد المنظّم وقد تعرّض لعمليّة "استبدال أعضاء"؛ فكلّ القطع الممتازة التي كانت في داخله سُرقتْ، واستُبدل بها خردة صدئة خربة، وضعت فيه كيفما اتفق!

* * *

و"الزلمة بدّل أعضاء المنظّم مجاناً! "ولوّ! بياخذ أجرة؟ معقول!؟".

عقل مثل الماء

أثناء وجودي في الولايات المتّحدة، وتطوّعي للعمل في منظّمة محاربة التمييز ضدّ العرب، من خلال قراءة ما يُكتب عنّا في المجلاّت والصحف والردّ عليه؛ تعرفت إلى الأسلوب الذي تتّبعه الصهيونيّة في تثبيت أقدامها. والآن وأنا أقرأ كتاب "عقل مثل الماء"، لاحظت التشابه الكبير بين أسلوبهم ونظريّات هذا الكتاب.

* الصهيونيّة تعتمد أسلوب " قطرة قطرة ": كلّ صهيونيّ - سواء أكان يهوديّاً أم مناصراً- عليه أن يعمل بكلّ طاقته وأكثر، لمساندة ما يعتبرها "قضيّته وحقّه في وطن قوميّ"! العمل يجب أن يقوم به كلّ واحد دون استثناء، وكلّ يوم دون استثناء. تجمّع القطرات يتحوّل إلى نهر جارف، يسير هادئاً وعميقاً، وفي اتّجاه واحد.

* الصهيونيّة تستخدم أسلوب الانتشار. فبينما تبقى الأحجار في مكانها، يتسرّب الماء في الشقوق محاولاً الوصول إلى كلّ مكان. للصهيونيّة انتشار يمتدّ إلى الماسونيّة، وإلى كلّ المنظّمات الفاعلة في العالم، السلبيّة منها والإيجابيّة، وإلى الأنظمة الحاكمة الموجودة في العالم، أو التي أوصلتها بنفسها إلى الحكم، ثمّ دعمتها وساعدتها على البقاء.

* أسلوبهم في الانتشار مدروس ومنظّم. يستخدمون المال، والجنس، والابتزاز، ودعم من يسير بركبهم من السياسيّين، ومن الفنّانين، ومن الشخصيّات المؤثّرة في العالم. أمّا من يجدون أنّه أصبح خطراً عليهم، فإنّهم يتخلّصون منه بالقتل الماديّ أو المعنويّ. وكما أنّ النهر الكبير يحاول ضمّ

الوديان التي في طريقه، فتسير كلّ قطرات الماء في اتّجاه واحد دون تبعثر، لتكوّن نهراً متواصل الجريان؛ هكذا الصهيونيّة تعمل من خلال قيادات شديدة الذكاء، والدهاء، والسرّيّة، والقدرة على السيطرة على الآخرين، وتوجيههم بحسب مصلحة الحركة.

* كما أنّ الماء حاجة حياتيّة لا يمكن الاستغناء عنها، فهم يحاولون أن يكون لهم حضورهم المكثّف في منظّمات عديدة، إنسانيّة، وعلميّة، وفنّيّة، وبحثيّة، وبيئيّة.. كلّ واحد منهم يبذل كلّ ما في طاقته لإعطاء صورة جميلة عن اليهود، وعن الصهيونيّة، من خلال تفوّقه وتميّزه فيما يقوم به، ودعم الآخرين من بني قومه، أمّا التكاثف والتضامن فمبدأ يلتزمونه بكلّ حرص.

* كما أنّ النهر عندما يشقّ مساره لا يهتمّ بما يجرفه في طريقه، هو أوّلاً، وليذهب باقي العالم إلى الجحيم؛ فإنّ الصهيونيّة تقاتل بشراسة شديدة لتدمير العرب، لأنّها تعتبرهم أعداءها، وتركّز على أساليب ممنهجة مدروسة، أوّلها دراسة العرب بشكلٍ دقيق جدّاً، ليتعرّفوا إلى مواطن ضعفهم، والتسلّل من خلالها.

* يحاولون التموضع في المفاصل الأكثر أهمّيّة علميّاً، أو مادّيّاً: كالطبّ، والمحاماة، والتجارة، والسينما، والسياسة، والإعلام، وهم يبذلون كلّ ما في وسعهم لمساندة بعضهم بعضاً، وتكوين قوّة منظّمة يُحسب لها ألف حساب
* . يتبرّعون لإسرائيل بقسم كبير من دخلهم، وهذه التبرّعات لا تأتي موسميّة، ولكنّها جزء لا يتجزّأ من برنامجهم الحياتيّ، وهناك ثقة بأنّ هذه التبرّعات توظّف لمصلحة الجميع بذكاء، وأمانة، ودقّة؛ وبالمقابل تؤمّن لهم الحركة الصهيونيّة الدعم، والمساندة، في أنشطتهم المختلفة.

* يبذلون كلّ ما في طاقتهم، ليقنعوا أنفسهم والعالم بأنّهم الأفضل، وبأنّ لهم الحقّ في السيطرة على العالم، والتخلّص من الشعوب الزائدة عن الحاجة في هذا الكوكب المكتظّ.

وبالمقابل يحاولون أن يقنعوا العرب والعالم، بأنّ الأمّة العربيّة جسد ميّت لا أمل فيه؛ فعلى العرب أن يستسلموا لهذا الواقع، وعلى العالم أن يقتنع بأنّ الصهيونيّة تقدّم خدمة للعالم بالقضاء عليهم.

ماذا يمكننا أن نفعل؟ فلنترك الإجابة لكم!

قطار.. ومحطّات!

* أنت في السادسة عشرة متفتّحة مثل برعم الصباح ... يراك في عرس، ويجدك مناسبة لكي (يربّيكي على ايدو!) ... يستهويك أن تصبحي محطّ الأنظار في ثوب أبيض جميل، أو ربما بتشجيع من أهلك، لسببٍ ماديّ، أو ليتخلّصوا مما قد تجلبينه لهم من عار! تتركين مدرستك وتتزوّجين، فتجدين نفسك أمام مسؤوليات لا تتناسب مع عمرك الغضّ.

* أنت في السادسة والعشرين ولم تتزوجي بعد (يا حرام!!). لم تجدي الشخص الذي يقنعك، وربما وجدتِه ولكنه لم يستوفِ الشروط، دين أو مذهب مختلف، بلد آخر، مستوى ثقافي او اجتماعي غير مناسب، ولكنك الآن أمام (خطر!) أن يفوتك القطار. المجتمع يدفعك إلى (التشعبط) بأيّ قطار. مقنعاً أو غير مقنع، مناسباً أو غير مناسب، يبقى (ظلّ راجل ولا ظلّ حيطة!!).

*أنت في السادسة والثلاثين ... صديقاتك متزوجات ويروين لك (جنة عدن!) التي يعيشون فيها ... تشاهدين قطاراً قادماً ولكنه ممتلئ .. تتسللين من النافذة تمسكين بزوجة أحدهم وترمينها امام عجلات القطار ... تلحقين الاطفال بأمهم .... العريس أصبح جاهزاً وقد أعجبته (حركة الأكشن) بعد ملل الحياة الزوجية .... الانبهار لا يبقى طويلاً ... وتجدين نفسك خارج القطار، أو في قطار ينظر ركابه إليك باحتقار...

* أنت في السادسة والاربعين تجدين عريساً ... عجوز يبحث عن ممرضة وخادمة مجانية.. سيشجعك المجتمع على ألا (ترفسي النعمة!!) .. وتجدين نفسك مقيدة إلى جوار سرير طبي.

* * *

إذا كنت تفهمين من كلامي أنني أفرض عليك رأيي وقناعاتي فأنت مخطئة!

إنني أشجعك على أن يكون لك شخصية وموقف ورأي نابع من قناعاتك أنت، وظروفك أنت، وطبيعة شخصيتك أنت ... وأنتِ فقط ..

أنت إنسانة تمتلك عقلاً وإرادةً ... إياك أن تنسي ذلك!

أنت إنسانة كاملة، سواء كنت في عصمة رجل أم لم تكوني ... إياك أن تنسي ذلك! الحياة مليئة بالخيارات وبالطرقات المفتوحة أمامك، فلا تُبقي عينيك مسمّرتَين على سكّة قطار... قطار قد يحملك إلى حيث تريدين، أو قد يقذف بك إلى المجهول.

هي وجهة نظر ...ويبقى القرار قرارك .... قرارك أنتِ وحدك.

"Aloe vera" ألوي فيرا

"ألوي فيرا ".. كتّر خيرا.. للحُرق ما إلنا غيرا..

إصبعتي عم بطبع فيها.. وجارتنا استكثرت بخيرا .

آخر الليل وعلى الفيسبوك، صورة مائدة شهيّة، وصحن بابا غنّوج (متبّل الباذنجان) مزيّن بأوراق النعنع، وحبات الرمّان، وشرائح البندورة، والبصل الأخضر.. الله يلعن إبليس! أغراني هذا الصحن بعمل صحن مشابه!

وضعت الباذنجانة على الغاز، وعندما أردت أن أقلبها.. وأنا أشعر بالنعاس، والكهرباء ضعيفة.. أمسكت بحديد الغاز المحمّى بدلاً من عنق الباذنجانة.. وحصلت بدل الباذنجان المشويّ على "أصابع مشويّة "! الشكوى لغير الله مذلّة.. الحرق كان فعلاً مؤلماً!

تذكّرت شتلة "ألوي فيرا" (وهي نوع من الصبّاريات) كانت قد أهدتني إيّاها جارة قادمة من فنزويلا، وقالت إنّها عظيمة الفائدة، خاصّة في تخفيف ألم الحرق وتعجيل شفائه.. أحضرت ورقة، وأخذت شريحة خرج منها سائل كثيف لزج، ووضعتها على مكان الحرق.. ولم أصدّق ما حصل! الألم انتهى فجأة، وكأنّه سحر ساحر! أبقيت شريحة "ألوي فيرا" على الحروق حتى الصباح.. وفي اليوم التالي وجدت أنّ الأصابع التي كانت حمراء وملتهبة وموجعة، أصبحت عاديّة، لولا الحفرة التي تركتها قطعة الحديد.. ودعوت بالخير للجارة التي أعطتني الشتلة والوصفة.

هذا ما حصل معي، أكتبه عسى أن يضيف إليه الخبراء تأكيداً أو تحذيراً.. إذا أردتم المزيد عن النبتة وصورتها، يمكنكم كتابة "ألوي فيرا" على الجوجل، وستجدون الكثير من المقالات عنها وبعضهم يسمّيها "النبتة العجائبية!

النبتة أحضرها المغتربون من فنزويلا، ثمّ انتشرت في البيوت والمشاتل..
شكلّها لطيف ولا تحتاج إلى عناية خاصّة، وهي معمّرة تبقى لسنوات..
وعسى أن لا يحتاج إليها أحد منكم.

شاميّة وجاي من الشام

ركبتْ السيّارة متّجهة إلى المحافظة التي تمّ تعيينها فيها. اختفت خضرة الغوطة، وأصبحت لا ترى سوى أرضٍ جرداء قاحلة، ثمّ ازدادت المشاهد وحشة واسوداداً؛ حجارة بلون الحداد... تربة داكنة... وحتّى الفلاّحون والفلاّحات الذين شاهدتهم كان يغلب على لباسهم السواد ...

هل تعود وتعتذر عن العمل في ذلك المكان؟

كانت قد سمعت الكثير عن هذه المحافظة، ومعظمه كان يترك الكثير من إشارات الاستفهام المتشابكة؛ الأتراك وإبراهيم باشا والفرنسيّون لاقوا جميعاً مقاومة شرسة، فبرّروا انهزامهم بالقول إنّ سكّان هذه المحافظة مخلوقات شيطانيّة تتمتّع بقوى خارقة، حتّى إنّ لها قروناً وذيولا ...!

الشابّة خرّيجة الجامعة وابنة البيت الراقي ما كانت لتصدّق ذلك، ولكنّها شعرت بقلبها يرتجف وهي تنظر حولها فلا ترى سوى السواد .. حتّى الغيمة الداكنة التي غطّت السماء خنقت كلّ لون آخر .

كانت شجاعة وقرّرت أن تجرّب ...

وصلت إلى المدينة. بحثت عن بيت مثل بيتهم، عن مطبخ مثل مطبخهم، عن حمّام مثل حمّامهم، عن حديقة مثل حديقتهم؛ وعندما خاب أملها استأجرت مكانا كانت حسنته الوحيدة قربه من إعداديّة البنات .

ذهبت إلى المدرسة الإعداديّة، ودخلت إلى الصفّ لأوّل مرّة. شاهدت عيونا تنظر إليها بإعجاب ومحبّة. بشرتها الناصعة البياض، وعيناها السوداوان أمران كانا يذكرانهنّ بقصّة (سنو وايت). أناقتها المحبّبة كأناقة ممثّلة في فيلم مصريّ، ولهجتها ... لم تكن شاميّة كما في سوق الحميديّة، ولا لبنانيّة مثل اسكتشات فيلمون وهبي، ولا مصريّة مثل أغاني فريد الأطرش... كانت تشبه لهجة المذيع الذي يقرأ نشرة الأخبار في الساعة الثانية والربع! لم تكن الطالبات قد سمعن من قبل أحدا يتكلّم الفصحى إلا من الراديو، وتابعن صوتها المحبّب خاصّة عندما كانت تقرأ الشعر، فتبعث في الكلمة حياة، وتجعل الطالبات يشعرن بمالك بن الريب وهو يرثي نفسه متجسّداً أمامهنّ، وكان الصفّ يتحوّل إلى حديقة ورود ربيعيّة وهي تقرأ بصوتها المحبّب:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً   من الحسن حتّى كاد أن يتكلّما
وقد نبّه النيروز في غلس الدجى   أوائل ورد كنّ بالأمس نوّما
يفتّقها برد الندى فكأنّهُ   يبثّ حديثاً كان أمس مكتّما

كانت تتعرف إلى أسماء الطالبات عندما سألت طالبة عن اسمها وأجابتها:

- تِرفة.

كان الاسم غريباً على مسامعها فسألت مستفسرة:

- هل الاسم بالتاء أم بالطاء كما في اسم:" طَرَفَة بن العبد"؟

وما إن سمعت الطالبات كلمة "طَرَفَة" حتّى بدأن يتهامسن ويتضاحكن، فكلمة "طرفة " هنا (وعائلة طرفة الكريمة من الكلمات) هي اسم لأحد أعضاء جسم الإنسان الذي قلّما يُستخدم لغير الشتائم !

تحوّل وجه الطالبة إلى لون شريحة شمندر، وصاحت محتجّة وهي (تشوّح) بيديها بغضب:

- تِرفَة آنسة بالتاء ترفة... ترفة... ترفة..

لاحظت المدرّسة الضحكات والتعليقات الهامسة الساخرة فلم تؤنّب أيّ طالبة، لكنّها وقفت تنظر إلى الجميع بعيون غاضبة تقول دون كلام: " لا أسمح بالتهريج والفوضى في الصفّ". سكتن جميعاً فقد كان لها تلك الشخصيّة الآسرة التي تجمع بين الحنان والحزم.

بدأت تروي لطالباتها شيئا من سيرة طرفة بن العبد، وقصّة اغتياله وهو شابّ، ومعلّقته على أستار الكعبة، وتعرّفهنّ ببعض أشعاره.. حتّى شعرت كلّ واحدة منهنّ بالعتب على أهلها لأنّهم لم يسمّوها" طَرَفَة"..!!

***

كانت تتفقّد الوظائف عندما وصلت إليها.. طالبة صغيرة تجلس قرب النافذة تحدّق في السماء وهي غير معنيّة بما يحدث داخل الصفّ!

- أين موضوعك؟

- ما كتبتوش!

- أين دفترك؟

- ما جبتوش!

- أين قلمك؟

- ما حبّرتوش! (لم يكن قلم الحبر الناشف قد دخل إلى السويداء بعد، وكان "الستيلو" يحبّر بغمسه في دواة الحبر!).

حدجتها المدرّسة بنظرة استنكار وقالت:

- توش.. توش.. توش.. كم أنت مهملة يا صغيرة..

كانت الطالبة الصغيرة وما زالت، تعتبر المدرسة فكرة جهنّميّة، اخترعها أحد الساديّين لتعذيب الأطفال، وتبتكر خططاً تتحدّى بها القضبان الحديديّة لنوافذ الصف، والخيال كان قادرا على الهروب بها إلى عوالم لا مدرسة فيها، ولا قضبان، ولا مقاعد صنعت من خشب الصليب.

* * *

كان النظام التعليمي يفترض على المدرّس أن يتكلّم إلى أن يبحّ صوته، والطالب صامت إلى أن ينسى أنّ له صوتا! لكنّ المدرّسة كانت تسمح لطالباتها بفترات "تنفّس" لألسنتهنّ بقدر ما يسمح النظام التعليميّ بذلك.. فقد كانت تطرح أسئلة، وتطلب إلى الطالبات قراءة النصوص الأدبيّة في الكتاب، أو قراءة مواضيع الإنشاء التي كتبوها.. كانت تمتدح مواضيع " الصغيرة المهملة " وكثيرا ما انطلقت الأصوات محتجّة :

- أكيد كاتبلها ياه بيّها الأستاذ سلامة !

وهذا أكثر ما كانت تحلم به تلك الطالبة، أن ترقى كتابتها الطفوليّة إلى أدب والدها !.

من أكثر ما كانت الطالبات يستمتعن به، وقوف طالبة دمشقيّة أمام الصفّ لتقرأ بتعابير وجهها وعيونها وحركات يديها وصوتها المعبّر، فيشعرن

أنّها ممثّلة خارجة من فيلم سينمائيّ، وما كنّ ليتخيّلن أنّها ستصبح واحدة من أهمّ الممثّلات في الوطن العربيّ. وكانت طالبات الصفّ الثامن من إعداديّة السويداء أوّل جمهور لها، قبل أن يصبح لمنى واصف الملايين من المعجبين!!

***

الرحلة إلى الكوم ..

عندما علمت الطالبة الصغيرة أنّ هناك رحلة إلى الكوم، وأنّ الآنسة ندوة مشاركة فيها، ذهبت إلى أمّها تطلب نصف ليرة للاشتراك في الرحلة، وكان جواب الأمّ حازماً:

- مش شايفتينا عم نعمّر ؟؟ من وين بدي جبلك نص ليرة ؟... بعد محاولات يائسة وافقت الأمّ.. تجرّأت الصغيرة لتضيف:

- كمان نص ليرة للتبّولة والبزورات ...

عندها صرخت بها :

- بدّي لحّق عليكي نصاص ليرات ؟؟!!

ولولا لطف الله، وتدخُّل الأب لصالحها، لما شاركت الصغيرة في الرحلة، ولما كانت الآن تروي ذكرياتها !

* * *

تمرّ الأيام والجميع ينتظر موعد الرحلة بفارغ الصبر... إلى أن حان اليوم الموعود أخيراً ...

تجمّعن في باحة المدرسة، ثمّ انطلقت الرحلة مع أصوات الدفوف والدربكّة، ومع غناء الطالبات وتصفيقهنّ، وكم أسعدهنّ أن تشارك الآنسة ندوة بالغناء والتصفيق، وهي تبذل كلّ جهدها لتشعر كلّ طالبة بأنّها محطّ اهتمام ... ولكنهنّ طمعن بأكثر ممّا كانت قادرة عليه، فانطلقت أغنية عاتبة تقول:

دخل عيونك حاكينا يا آنسة ندوة حاكينا
وصلتينا لنص البير وقطعتي الحبلة فينا ...

ويليي ... ويلي ... ويلي

وصلت الرحلة إلى الكوم ... أشجار وطيور وأماكن مرتّبة معدّة للرحلات.. بدأ تحضير الضيافة، بزورات، وحلويات، وزبيب وتين مجفّف، ولكنّ الضيافة لا تكتمل دون التبّولة... اجتمعت الطالبات لفرم الخضار، وكالعادة تهرّبت الصغيرة من العمل، فقد كانت وما زالت تكره الأعمال المنزليّة، وعندما يكلّفها أحد عمل شيء، تتعمّد إظهار جهلها، وكثيراً ما كانت أمّها تصيح بها :

- روحي يمّي روحي ... " شغل البنت اشتغله إنت !"

فتبتعد وهي تضحك من نجاح خطّتها !

شارك في الرحلة عدد من المدرّسات الشاميّات اللطيفات، وكان لا بدّ من تكريمهنّ بأغنية... وانطلقت الحناجر تغنّي:

شاميّة وجايي من الشام من الشام جايي الشاميّة
فسطانا اتنعشر ذراع بيفرش أرض العليّة
وتضيف طالبة كانت أكبر سنّا :

يا ربي تشتّي عرسان ... تا فرّح إمي وبيّي!

وتتهامس الطالبات متندّرات عليها، فقد كانت تلاحق الكاميرا آخذة (بوزات) تظهر جمالها وانحناءات جسمها الأنثويّة! و تقول إنّها تريد عريساً فنزويلانيّاً يشتري لها طربوشاً ذهبيّاً، ويأخذها إلى بلاد الأجانب ! ...

يتوقّفن لالتقاط أنفاسهنّ، ويأتي دور النكت والحزازير ...

بعض الطالبات كنّ يمتلكن خفّة ظلّ، ونكتاً جاهزة، وتعليقات مرحة.. بعضهنّ كان ينجح في التقليد.. وفي ذلك الجوّ كانت حتّى النكت القديمة تلقى تجاوبا وضحكا رغم (بياختها)!

جاء دور الحزازير ومعظمها معروف وسهل.. ولكنّ ليلى طرحت حزّورة لم تكن معروفة سابقاً ولم تتمكّن واحدة من حلّها:

يا قاضي تُها

في إمرأة تزوجتها

هي أمّي وأنا ولدتها !!

وكانت ليلى تنظر إلى الجميع ساخرة ومتحدّية وهي تقول: كعيتو!؟

أخرجت فدوى بكلّ اعتزاز كاميرا أهداها لها والدها المغترب، وتابعت الجميع بكاميرتها ... المسكينة انشغلت بالتصوير ولم تظهر في الصور... فاستخدام الكاميرا في ذلك الوقت لم يكن معروفا إلاّ للقليلين...

الكوم أو كوم الحصى له قصة تاريخيّة، فقد قام أحد القادة المغول بطمر نبع ماء كان في المنطقة، وذلك بأن طلب من جيشه جمع الصخور والحجارة والحصى لكي يمنع الماء عن أعدائه، فتكوّنت تلّة من الحجارة غطّتها التربة فيما بعد .. ولأنّ المنطقة كانت غنيّة بالمياه فقد كثرت فيها الأشجار الخضراء الجميلة ... وجاءت العصافير لتضيف سحراً على المكان ..

وهل تكتمل الأغاني دون حماسة وطنيّة .... ويبدأ الغناء ...

"هيهِ يللي راكبين على السلايل صوب دمر ولاّ الهامة ناحرينا
سلمو عا ربعنا وقولو لناصر بالسيويدا ثارنا حنّا خذينا."

وتزداد الحماسة، وتعلو الأصوات، ويشارك الجميع:

بالسيويدا ثارنا حنّا خذينا ...

بالسيويدا ثارنا حنّا خذينا ..

وهذه الأغنية هي تحوير لقصيدة من التراث الشعبيّ، كانت تعدّل حسب المناسبة..

كناّ نعلم جميعا أنّ إقبال الأطرش ستكون مسك الختام ... فتصمت الدفوف والدربكّة والأكفّ المصفّقة، وينطلق صوتها الأسمهانيّ الرائع: " دخلت مرّة فجينينة ..أشمّ ريحة الزهور" تتبعها أغنية فيروز :" زوروني كلّ سنة مرّة ...."

تتوقّف العصافير عن التغريد مصغية إلى تغريد أجمل.. ولا يعود يُسمع سوى صوت إقبال الملائكيّ، وحفيف أوراق الشجر ترسل إعجابها الهامس .....

إقبال كان جمهورها الوحيد هو زميلاتها والحفلات المدرسيّة، ولكنّها أورثت صوتها الجميل إلى ابنتها رشا رزق التي أمتعتنا بالكثير من الأغاني الراقية، وبخاصّة مقدّمات أفلام كرتون انتشرت بنجاح كبير في الوطن العربي ... كما أورثت ابنة أختها لبانة القنطار صوتا أوبراليّا أوصلها إلى العالميّة.. ولكنّ رشا ولبانة أخذت كلّ منهما لقب أبيها... وقد لا يعرف الكثيرون أنّ أمّيهما هما إقبال وأميرة الأطرش... جينات في العائلة تحمل آذانا موسيقيّة، وأصواتا رخيمة منذ أيّام فريد وأسمهان ...

تعود الطالبات إلى بيوتهنّ يحملن ذكريات جميلة ... ووعدا من فدوى بإعطائهنّ صور الرحلة ... بقيت الصور والذكريات والآنسة ندوة ، التي ما زالت تذكر السويداء بكلّ الخير والحبّ ، والسويداء تبادلها حبّا بحبّ ، ووفاء بوفاء ...

عندما تمتلئ الأفواه بالتبن!

- خسارة مواهبي.. أنا يجب أن أكون مسؤولاً.. يجب أن أتولّى منصباً رفيعاً وحسّاساً.

كان الحمار (الفهيم !) يكلّم نفسه، وهو يسير باتّجاه الغابة ليجد من يكتشف إمكانيّاته المهدورة، عندما شاهده الثعلب:

- صباح الخير يا مولاي الحمار! يا لقامتك الفارعة، وصوتك الجهوري، ووجهك الذي ينطق بالذكاء.. كم تحتاج الغابة إليك !

- نعم، نعم، أعرف ذلك عن نفسي. ولكن ماذا تقصد بكلامك عن حاجة الغابة إليّ؟؟

- زعماء الغابة يبحثون عمّن يتولّى منصباً رفيعاً. هو يأمر، وجميعهم ينفّذون. وقد توسّمتُ فيك النجابة والقوّة والحكمة. تعال معي لأجمعك بهم، وأنا واثق بأنّهم سيجدونك مثاليّاً لهذا المنصب الخطير.

تردّد الحمار قليلاً:

- ما يدريني أنّك لا تخدعني؟

- ألست مثقّفاً؟؟ ألم تقرأ في التاريخ أنّ الثعالب لا تخادع؟ ثم إنّك أصبحت صديقي، هل من المعقول للصديق أن يخون صديقه!؟

- طبعاً لا، طبعاً لا...أنا مثقّف وذكيّ ، وأعلم أنّ كلامك صحيح تماماً.

وصل الحمار (الفهيم) إلى حيث كان زعماء الغابة مجتمعين، جلسوا يتسامرون ويتحاورون...ثمّ قالوا جميعاً بصوت واحد:

- إنّه هو من نبحث عنه. سنسلّمه اتّخاذ كلّ القرارات الخطيرة:

هو يأمر ونحن نطيع. أحضِروا الطعام الفاخر لزعيمنا الجديد!

تعالت الهتافات والتصفيق للمسؤول الجديد، وجاؤوا بالتبن الفاخر المغطّى بأوراق الورد الغضّة، ورشّوا عليه بعض الملح، ثمّ دعوه إلى تناول الوجبة ليصبح بينهم "تبن وملح "! عربون الصداقة الدائمة.

بدؤوا يناقشون مشاكل الغابة، وكيف أنّ زعماءها يشعرون بالجوع، ولا يجدون حلاً لهذه المشكلة، فانبرى الثعلب صائحاً:

- أقدّم نفسي فداء لكم! ما رأيكم بأن تأكلوني أنا، وبذلك تحلّون المشكلة؟؟

- انقلع أيها القميء، صاحب الجسم الهزيل! أنت لا تصلح! بدأ كلّ واحد من الموجودين يعرض أن تتمّ التضحية به، ولكنّ الجواب كان دائماً:

- لا، لا، لا، أنتم لا تصلحون!

عندما وصل الدور إلى الحمار، تسابقوا في تقديم قبضات من التبن له، فامتلأ فمه بالتبن. وعندما سألوه عن رأيه فتح فمه ليقول شيئاً، ولكن كان كلّ ما خرج من فمه هو التبن! وهل يخرج من الفم المملوء بالتبن إلاّ التبن؟ أراد أن يقدّم لهم اقتراحات حكيمة، ولكنّه لم يستطع أن ينهق بشيء. وقف الثعلب متطوّعاً ليشرح فكرة الحمار الفهيم:

- سيّدي ومولاي الحمار المبجّل، يقترح أن يضحّي بنفسه بكلّ نبل لكي يحلّ هذه المشكلة. تعالى الهتاف والتصفيق المدوّي.. وكلّما حاول الحمار أن يعترض، ويشرح لهم أنّه لم يقل ذلك.. كان الجميع يقولون بصوت واحد:

- نعم، نعم، كلّنا سمعنا ما قاله هذا العزيز عن تضحيته بنفسه، من أجلنا!

بدأ الحمار يرفس محتجّاً، ويحاول الهرب.. لكنّه كان محاطاً بزعماء الغابة وأتباعهم وأتباع أتباعهم.

في اللحظة الأخيرة من حياته أطلق نهيقاً عالياً مستنجداً تردّد في أنحاء الغابة.

- نعم، نعم، إنّه يؤكّد أنّ القرار قراره، وبما أنّه سيّد الغابة الجديد فلا مردّ لما يأمر به. لقد حاولنا أن نثنيه عن قراره، نقسم بشرفنا وشرف أجدادنا إنّنا بكينا ضارعين ليغيّر قراره، فنحن في أمسّ الحاجة إليه... ولكنّه غضب بشدّة من تدخّلنا، وسمع كلّ ما في الغابة صوته العالي الغاضب، وهو يأمرنا بتنفيذ قراره فوراً ودون نقاش.

وطارت الغربان الإعلاميّة لتنقل بكلّ "دقّة وأمانة وموضوعيّة" ما حصل في الاجتماع.... مع التأكيد أنّهم كانوا شهود عيان، شاهدوا، وسمعوا كلّ ما جرى.

* * *

في اليوم التالي كان الثعلب ينطلق في رحلة بحث جديدة عن فهيم يتمتّع بالمواصفات اللازمة لتولّي المنصب الخطير الذي أصبح شاغراً!.

" عن كليلة ودمنة، بتصرّف معاصر!"

إنتي شو بيعرف تشتغلي؟

نزل العريس من سيّارته الأنيقة، وسار باتجاه الشقّة المتواضعة، وسار وراءه حملة الهدايا الثمينة.

جلس العريس يستعرض مؤهّلاته أمام الأب، فهو إضافة إلى شبابه ووسامته يحمل شهادة عالية، ووظيفة ممتازة، وأموالاً لا تأكلها النيران. ولم يظهر على الأب الانبهار، و سأل:

- ابني إنتي شوبيعرف تشتغلي ؟

وظنّ العريس أنّ الأب لم تسعفه معرفته باللغة العربيّة في فهم ما كان يقوله، وعاد يكرّر بلغة مبسّطة مستعرضاً كلّ ما يملكه من عقارات وأموال وشهادات عالية.

وعاد الأب يسأل:

- إنتي بيعرف معلّم باطون؟ معلّم صحية؟ طباّخ؟ بيعرف يشتغل مهنة بي إيدو ؟

وشعر العريس أنّه يكاد ينفجر من الغيظ، هو ابن الحسب والنسب، ومالك البنايات والمحالّ، وحامل الشهادات التي تغطّي الجدار يشتغل بمهنة يدويّة؟ وبعد أخذ وردّ ختم الأب الحديث وبحزم شديد:

- ابني إنتي بيعرف تشتغلي، في عروس. ما بيعرف تشتغلي، ما في عروس.

وكادت الأمور (تتفركش) مع إصرار الأب على أن يتقن صهره المستقبليّ مهنة يدويّة، إلى أن طرح أحد الأصدقاء حلاًّ للمشكلة، واقترح على العريس أن

يحوّل شهادة السياقة الخصوصيّة التي يحملها إلى عموميّة، فتصبح مهنته (سائقاً عموميّاً!).

بعد أن أصبح الشابّ صهراً للأب الأرمنيّ شرح له سبب طلبه الغريب، فالأب كان الابن المدلل لأسرة تملك المال والعلم والجاه، وعندما أُخرجوا من بلادهم تركوا كلّ شيء وراءهم، كان وجود مهنة في يد أحدهم إنقاذا له ولأسرته من ذلّ الحاجة.

***

إلى الشبّان الذين يتثاءبون من الملل، أبعد الله عنكم جميعا كلّ مكروه، لماذا لا تتعلّمون مهنة يدويّة: طبخاً، سباكة، تمديدات كهربائيّة. فربّما سافرتم إلى بلد أجنبيّ، ولم تجدوا مجالا للعمل باختصاصكم. وربّما أحببتم فتاة يقول لكم أبوها:

- ابني إنتي بيعرف تشتغلي، في عروس. ما بيعرف تشتغلي، ما في عروس!!

قوارير...ضد الكسر!

دخل الشيخ إلى القاعة المكتظّة بالنساء اللواتي دعونه لسماع موعظته، ولاستشارته في أمور دينهنّ ودنياهنّ.

شعر بالاعتزاز عندما وجد جميع الأخوات منقّبات بخمار سميك، يخفي كلّ معالم وجوههنّ تماماً كما أفتى بوجوب ذلك ، حتّى الأيدي كانت مغطّاة بقفّازات سوداء منعا للفتنة ..لم يكن المسكين يدري أنّ هذا اللباس لم يكن تديّناً ، وإنّما تنكّراً، وإخفاء لهوياتهنّ!

جلس مستعدّا لبدء المحاضرة عندما فاجأته إحداهنّ بسؤال:

- شيخنا أنت تقول إنّ في ضرب المرأة تكريماً لها، بشرط أن لا يفقأ لها عيناً، أو يكسر عظماً، أو يريق دماً ... هل شدّ الشعر ونتفه مسموح بهما؟

وقبل أن يجيب تابعت:

- وإذا كان الرأس أقرع ... فهل يجوز شدّ ونتف اللحية؟!

امتدّت يد الشيخ لا شعوريّا إلى لحيته التي كان قد صبغها بالحنّاء، ومشطها وطيّبها احتفاء بالمناسبة...

شعر بقلبه يدقّ... قاعة عاتمة... أشباح سوداء بالكامل ... والبداية هي عن نتف اللحية!

وعاجلته أخرى بسؤال:

- شيخنا الضرب بقضيب الرمّان أو الخيزرانة أو القشاط مسموح ؟

وجحظت عيناه، وقد أخرجت كلّ منهنّ من تحت عباءتها ما تيسّر من أدوات الضرب... كانت الخيزرانات تلسع الأرض بإيقاع جعل الدم يتجمّد في عروقه ..

نهض مرتعبا، وسار متّجها نحو الباب ليجده مقفلا ... امتدّت يده إلى الموبايل ليستنجد فسارعت إحداهنّ لتأخذه منه:

- شيخنا الموبايل شغل الكفّار هل يصحّ لشيخ جليل مثلك أن يستخدمه؟ ... ارجع إلى مكانك عندي سؤال: قالوا لنا ونحن صغار إنّ من يتلفّظ بكلام بذيء وسيّئ وسفيه يفلفلون له فمه !؟

نظر الشيخ ليجد كلّ واحدة تحمل في يدها قرن فليفلة حمراء، تحرّكه أمام عيني الشيخ مثل بندول الساعة ....كان اللون الأحمر على الخلفيّة السوداء يزيد من المنظر المرعب...

اندفع الشيخ باتّجاه الباب وهو يستنجد بالصراخ والطرق عليه... تركنه يركض مثل أرنب مذعور، وضحكات النساء وتعليقاتهنّ وشتائمهنّ تلاحقه... فمنذ أن بدأ يفتي بأنّ ضرب النساء مسموح به، بل ومستحبّ، وهو إكرام لهنّ أصبح أزواجهنّ (يكرمونهنّ) صباحا ومساء... !

في اليوم التالي عاد رجال القرية وفي يد كلّ منهم هديّة لزوجته وابتسامة على وجهه، عملا بموعظة الشيخ: "رفقا بالقوارير!".

ملبّس عقضامي وزبيب!

كاد الزوج المسكين أن يُصاب بجلطة عندما دخلت " ستّ الحسن " بالأكياس وعلب الحلوى، بخاصّة عندما وقع نظره على اسم الشوكولاتة التي كان يسمع عنها ولم يسبق أن حصل له شرف التعرّف إليها شخصيّا!

صاح برعب:

- طار الراتب هلّق كيف بدنا نعيش لآخر الشهر؟
- الضيافة "فتحة عين" يا زلمة، يعني بدّك الناس تقول ضيافتهن باخسة؟ بتقبل تكون ضيافة غيرنا أحسن من ضيافتنا ؟
- كانوا أهالينا يضيّفو ملبّس عقضامي وزبيب وكانوا مبسوطين وما شاء الله عليهن..

ثم أضاف وهو يبرطم بصوت خافت:

- الله يرحم أهلك يلّي فاطمينك عالشاكالاطا..!

جاء العيد وصفّت ستّ الحسن علب الحلوى، وعندما صفّت حبّات الشوكولاتة حرصت على أن تُظهر اسم صنف الشوكولاتة الفاخر، فالاسم لا يقلّ أهمّيّة عن الطعم!..

***

وجاؤوا قبل الجميع...!

هبطوا على " ستّ الحسن" مثل غضب الله، أسرة من أقارب زوجها، ومعهم نصف دزينة من الأولاد...

بدأ الأولاد يغرفون ويحشون جيوبا يبدو أنّها كانت مفصّلة خصّيصا للمناسبة، إذ أنّ لها أفواها تبلع ولا تشبع.. خصوصا مع وجود الشوكولاتة الفاخرة..

قالت أمّ الأولاد ببرود (ونياطة!):

- حبيباتي حبّة واحدة بس..

ونهرها الزوج:

- يعني بدّك الأولاد يتعقّدو منشان حبتين شاكالاطا؟ شيلو بيّي شيلو ما تستحوش هذول قرايبنا ..

* * *

لم يتعقّد الأولاد، ولكنّ "ستّ الحسن" هي التي تعقّدت.. وعندما سألوها في العام التالي:

- شو بدّك تضيفي عالعيد؟

ردّت بحنق معتّق:

- ملبّس عقضامي وزبيب!

نحنا شو دَخَلنا ؟..

كانت لا تزال طفلة في المرحلة الإعداديّة، تلعب مع الأطفال في الحارة، عندما جاءها "عريس الغفلة " خاطبا... صغيرة؟ بتكبر ببيت زوجها... عريس زنكيل ومقتدر ومستعدّ يشنشلها بالذهب!

لم يستشرها أحد فهي "زغيرة وما بتعرف مصلحة حالها".. الكبار أدرى بمصلحتها.. كانت في العشرين عندما وجدت نفسها أمّاً لعدد من الأطفال، وزوجة لمقامر سكّير كان يضربها بعنف وشراسة، كلّما عاد خاسرا من لعبة القمار.. أضاع الثروة.. وأضاع شناشيل الذهب.. وحوّل الرجل داخله إلى وحش!

ماذا تفعل؟

الأهل قالوا لها: "البيت اللي ربّاكي... ما راح وخلاّكي" أهلا وسهلا فيكي بسّ الأولاد بيبقو عند أبوهم ...

هل يمكن أن تترك أطفالها مع هذا الوحش الساديّ المجرم؟

المشايخ قالوا: يا بنتي المرأة العاقلة بتتحمّل منشان اولادها لو زوجها "بدّو يطحن على ظهرها ملح....."

المجتمع حذّرها من كلمة مطلّقة.. فالمطلّقة متّهمة في شرفها حتّى عندما يثبت العكس...

القانون... مرحبا قانون

* * *

ماذا بإمكانها أن تفعل؟ ليس معها شهادة.. ليس عندها مهنة .. ميراث الأهل ذهب للذكور.. حتّى لو أرادت أن تعمل بائعة في محلّ، أو سكرتيرة لدى أحد الأطبّاء، فلا الدخل يكفيها.. ولا الأهل يسمحون لها أن تسكن بمفردها، وتعمل بوظيفة لا تليق بـ(برستيجهم).

لم يكن هناك حلّ سوى أن تقبل التعذيب اليوميّ، باعتباره جزءا من حياتها، إلى أن يكبر الأولاد...

كبر الأولاد وسافروا وقرّرت الانفصال عنه.. وقبل أن تخبره بقرارها أصيب بالشلل... أصبح لا يستطيع أن يشرب إذا لم تسقه ..أن يأكل إذا لم تطعمه.. أن يتناول حبّة مسكّن الآلام إذا لم تناوله إيّاها.

* * *

ماذا تفعل؟ هل تتركه وتعيش ما تبقّى من حياتها بعيدا عن هذا الكابوس الذي دمّر حياتها، أم تبقى معه؟

أولادها يدركون أنّه برعايتها للمشلول تريحهم من هذه المسؤوليّة، فيشجعونها على البقاء وهي لا تريد أن (تكسر بخاطرهم). المجتمع يوجب عليها أن تكون "رحوماً" و "إنسانيّة " و"بنت أصل " وتبقى معه وتعامله أفضل معاملة، فالرحمة والإنسانيّة تكونان للآخرين، ولا يحقّ لها أن تكون رحوماً بنفسها ..!!

الأهل لا يعجبهم أن تصبح مطلّقة، وتعمل لهم فضيحة بعد أن أصبح أولادها "هروش.."

بقيت معه تتحمّل العناية به وحدها .. وتتحمّل سوء طباعه التي لم يهذّبها المرض واحتياجه إليها ...

تكون غارقة في عزّ نومها بعد إرهاق يوم طويل عندما يأتيها صوته صارخا:

- ولك إن شاء الله بقبرك صار لي ساعة عبيّعطلك بدّي إشرب بدّي مَيّ ...

تفرك عينيها الناعستين وتجيب:

- طاسة الميّ عالكومادينا حدّك...

يكون أرقا فيتلذّذ بتعذيبها...

- بدّك ياني إشرب ميّ سخنة مثل زناقيح النوريّة ...انقلعي قومي جيبيلي ميّ من البرّاد ...

تقوم وتحضر كأس الماء..

- الله ياخذك جايبتيلي ياها مجلّدة، روحي حطّي نصّ من البرّاد ونصّ من الحنفيّة ...

تعلم أنّها إذا لم تفعل فسوف يوقظ الجيران بصراخه وشتائمه ..

ويستمرّ المسلسل يوما بعد يوم...

أصيبت بـ(الديسك) من كثرة ما تعبت في رعاية الزوج المشلول، وأصبحت هي بحاجة إلى رعاية..

- فأين تذهب؟

زوجات الشباب يصرخن:" عندها بنات مجبورين فيها.. نحنا شو دخلنا"..

أزواج البنات يصيحون بصوت أعلى: " عندها شباب كلّ واحد قدّ الحيط ..نحنا شو دخلنا؟"

الأهل يبرطمون: "عندها (جعرّ) ولاد... نحنا شو دخلنا؟"

ويصيحون جميعا بصوت واحد:" خذها يا عزرائيل"...

ويهدر صوت عزرائيل: " لك .. أنا شو دخلني !!؟"

عزيمة عرمونيّة

- بكرا بدنا نروح نعايد قرايبنا بعرمون، ربطنا مع اوطومبيل سكارسا ..

و(الاوطوموبيل سكارسا) تعني سيّارة محجوزة لهم بالكامل وتبقى تحت تصرّفهم، ومنها جاءت أغنية صباح:

آخذ قلبي سكارسا من الشام عا بيروت. !"

- خذو سلمى معكن بتنبسط..

اقترحت إحدى خالاتي..

- رايحين نسوان كبار شو بدّو يتعتع هالطفّولة بنت خمس سنين معنا ؟

ردّت الجدة.

ولكنّني كنت قد سمعت الفكرة وبدأت أصدح بموّالي :

- بدّي روح معكن .. بدّي روح معكن

...وييييييييييييييييييييييي

مانعت الجدّة قليلا، ثم قالت للخالة زاجرة:

- يعني ضروري تكتري حكي وتخلّيها تصطلي علينا ؟...

كان ذلك موافقة ضمنيّة من الجدّة على اصطحابي!

لم أنم تلك الليلة. كان فستان العيد قد أصبح جاهزا.. فستان كلوش من (التفتا) الزهريّ أبدعت أنامل الخالات في تحويل خيطان الـ (دي أم سي) إلى ورود وفراشات تتراقص كلّما تحرك الكلوش، و ظفيرتين تتحوّلان فوق الرأس

إلى ما يشبه إكليل الغار بخاصّة بعد تزيينهما بالشرائط الزهريّة من لون الفستان، و بزهور الليمون وأوراقه الغضّة، والورد الجوريّ... وحضّرت (الجزدان) الجميل الذي اشتروه لي من بيروت ليكون هديّة العيد...

انطلقت بنا السيّارة، لا تُقلّ سوى نساء كبيرات السنّ، إذ أنّ مشاركة الصبايا في مثل هذه الزيارات لم تكن مقبولة، لكي لا يقال عن الشابّة التي تتجرّأ على المشاركة :" فاقع شرش الحيا من وجهها ورايحة تدوّر على عريس !!"

* * * *

وصلنا إلى أوّل بيت في القرية الجميلة الوادعة، ووجدنا استقبالاً حارّا صادقا، وطاولة عامرة بكلّ ما لذّ وطاب من حلويات العيد... أخذت عيناي تتنقّلان بحسرة بين الشوكولاطة، وكعك العيد، و(البسكوت المحشي) بالراحة، فمراسيم الضيافة تقتضي أن يبحث الضيف عن أصغر حبّة ملبس، ويكتفي بها، فالحلويات يجب أن تبقى (لسترة وجه) أصحاب البيت طوال فترة العيد، فحال القرويين لم تكن تسمح بأكثر ممّا هو على الطاولة!...كانت عمليّة تعذيب أن أشاهد كلّ هذه الأطايب، ثمّ أكتفي بملبّسة عجفاء، وعند انتهاء الزيارة اتّبعت البروتوكول المعروف مكرهة، وعيناي تلاحقان الطاولة العامرة ، وإذ بصاحبة البيت تملأ يدها بكلّ أنواع الحلوى، لتضعها في جزداني. خاضت معها جدّتي حربا ضروسا بالكلام، والأيدي، والعضلات، لمنعها من وضع كلّ هذه الحلوى... لكنّ صاحبة البيت انتصرت... ربّما لأنّني كنت أدعو لها بالنصر من كلّ قلبي..!

كنت قد سمعت بعبارة :" عزيمة عرمونيّة !" للتعبير عن الإصرار الشديد الذي لا يقبل بالرفض جوابا، ولكنّني بعد زيارتي بيوت القرية، وتكرار المشهد في كلّ مرّة، أيقنت أنّ العبارة لم تكن تقال عبثا...

عندما عدنا مساء، وقد أصبح جزداني منفوخا بحجم البطّيخة صاحت بي خالتي:

- يه يهيه ولي صار جزدانك مثل (شقبان النوريّة).

عشرات السنوات مرّت على زيارتي إلى عرمون، يوم عدت بكمّيّة من الحلوى تملأ (شقبان النوريّة)، ولا أزال أذكر ترحيبهم الصادق، وكرمهم الحاتميّ.

عايدوني بالحلوى، وأعايد أولادهم وأحفادهم بالقصّة، وأقول لهم كلّ عام وأنتم بخير.. عسى أن تكون أيامّكم كلّها (حلوة).

فنجان قهوة ..

جلست ترتشف قهوتها بعد يوم مرهق طويل ..

أمضت النهار في معرض الكتاب توقّع كتبها الجميلة التي وضعتها للأطفال، وحولها الجميع يتسابقون؛ ليتباهوا بصور يلتقطونها معها. أحفادها إلى جانبها فخورون بأن تكون جدّتهم كاتبة.

فوجئت عندما سألتها إحدى الأمّهات:" لماذا اخترت أن تكتبي للأطفال؟" شعرت بسكّين ينغرس في ذاكرتها، ينكأ جرحا لم يندمل ...منذ الصباح وهي تشاهد أمّهات وآباء يمسكون بايدي أطفالهم. يداعبونهم. يمزحون معهم. يشترون لهم الكتب الملوّنة. يرسمون على وجوههم ابتسامات تاهت عن طفولتها.

كم كانت الحياة قاسية عليها ...

* * *

عادت بها الذكريات ...

طفلة في الرابعة عشرة تكتب وظيفتها، وتحلم بأن يكون لديها كتاب ملوّن كالذي شاهدته في واجهة مكتبة في السوق .. يوقظها من حلمها الجميل صوت والدتها تدعوها لتسلّم على الضيوف ... تدخل لتشاهد غريبا يتفحّصها بنظرات تنغرس في جسدها الطفوليّ. تهرب إلى غرفتها محاولة أن تعود إلى كتابة وظيفتها، لكنّ خوفا غامضا يتسلّل إليها، جعل ركبتيها ترتجفان، وقلبها يدقّ برعب ..

كانت السويداء في تلك الأيّام تعيش حالة فقر مدقع، والقليلون الذين يملكون الرواتب، تتبخّر رواتبهم قبل أن تصل إلى جيوبهم .. وكان (العرسان) القادمون من وراء البحار ينقّبون في كلّ بيوت البلدة عن أجمل النفائس، يغرونها بالمال والأحلام والوعود البرّاقة ...

لم يستشرها أحد في أمر زواجها من هذا الرجل، فهي ليست سوى طفلة صغيرة جاهلة لا تعرف مصلحتها، والعجوز السمسارة عرفت كيف تقنع الأهل. قالت: إن لم يوافقوا على الفور فهناك العديدات اللواتي يحلمن بعريس فنزويلانيّ يدفع للأهل مهرا سخيّا، ويشتري للعروس الذهب والملابس، ويصطحبها في طائرة تحلّق في السماء إلى بلد تعيش فيه عيشة العزّ والدلال ...

وحملتها الطائرة ولكن ليس إلى حياة العزّ والدلال، بل إلى منفى ليس فيه سوى ذلك الغريب الذي لم تشعر تجاهه إلاّ بالنفور ...

تغمض الكاتبة عينيها برعب لم يفارقها يوما .. تتذكّر عندما كانت مستغرقة في نوم عميق، تحلم أنّها في بلدها مع أهلها وصديقاتها. فجأة أفزعها صوتٌ راعد يصرخ بها :

- بنتك عبتبكي وإنتِ نايمة ... تنامي ما تقومي إن شاء الله ..

طفلة في الخامسة عشرة .. غريبة في بلد غريب ... لا أمّ .. لا أخت.. لا قريبة ... كيف لابنة الخامسة عشرة أن تدرك أنّ هذه الصغيرة التي خرجت من أحشائها بعد آلام ما كانت لتتخيّلها ولو بأسوأ كوابيسها ...هذه الطفلة ليست لعبة ، هي مسؤوليّة وعذاب ، من إرضاع ونظافة واهتمام وسهر ، وما من يد تمتدّ لمساعدتها ، حتّى ما من أذن تصغي لشكواها ..

* * *

ارتجفت يدها، وسقط فنجان القهوة متناثرا قطعا صغيرة محطّمة... استعادت سؤالا سمعته في ذلك المساء:

لماذا اخترت أن تكتبي للأطفال ؟

هل تجيبها؟ هل تجيبها برواية من وحي أحداث طفولتها المعذّبة؟ ... طفولتها التي لم تعشها ... كتابها الذي حلمت به طفلة ولم تتمكّن من شرائه ... حياة بدأت باليتم ، ثم زواج جاء قبل موعده بكثير ...

****

جمعت قطع الفنجان، ونظرت إليه نظرة متحدّية ...."لست فنجان قهوة ."..

أمسكت بالقلم وبدأت تكتب وتكتب ... تكتب عن ابتسامة ضاعت من طفولتها ... ثمّ وجدتها من خلال كتب ترسم بسمات على وجوه أطفالٍ أحبّوا كتبها... أطفالٍ تعرفهم، وآخرين غرباء لن تشاهدهم يوما ...

أرسلت لي بعض ما كتبت عن ذكريات حياتها المعذّبة، ورغم الألم الذي ينضح من حروفها... وأشباح الماضي المخيفة التي تتراقص أمامها، فأنا أقول لها :

- لن تكسرك ذكريات أو أشباح ..

يوم اللغة العربيّة

كان أمس اليوم العالميّ للّغة العربيّة....

هل تذكّر أحد سلامة عبيد الذي أمضى عشر سنوات في الصين، يعمل ما لا يقلّ عن عشر ساعات يوميّا، متطوّعا لوضع أوّل قاموس صينيّ – عربيّ، حجمه أكبر من حجم قاموس المورد الكبير الإنكليزيّ - العربيّ ؟؟؟

لم يكتف بذلك، بل قام بعمل مجموعة قواميس تخصّصيّة، إضافة إلى قاموس مترادفات عربيّة .. وتهافت الكثيرون بعد وفاته يقرصنون أجزاء من أعماله، وينسبونها لأنفسهم، وينالون الجوائز السخيّة، وقلما يُذكر صاحب العمل الذي قدّم حياته لإنجاز هذه الأعمال الجبّارة، وتقديمها مجّانا ...

يؤلمني أن يُذكر اسم سلامة عبيد، ويذكر معه أنّه (ساهم) في إنجاز أوّل قاموس صينيّ – عربيّ، وهو الذي استفاد من إتقانه الفرنسيّة والإنكليزيّة، ووجوده في الصين، لينجز العمل بمساهمة بسيطة من الطلاّب والأساتذة الصينيّين....

عندما حذّره الأطبّاء من أنّ هذا العمل المضني سبّب له خثرة خطيرة في الساق تهدّد حياته، كان جوابه: " هذا القاموس ينهيني أو أنهيه.. " .

رحم الله سلامة عبيد الذي كان متواضعاً ... وكان معطاءً ... وكان يعمل بصمت....

وأقول آسفة: إنّ الذين يعملون بصمت لا ينتبه العالم لعطائهم... فالأصوات التي تُسمع هي في معظمها:" جعجعة دون طحين"... لهذا يجوع العالم من قلّة الطحين..

مشاكسات شعريّة

- **يقول الشاعر نزار قبّاني:**

إذا كان عصريَ ليس جميلاً
فكيف تريدينني أن أجمّل عصري؟
وإن كنتُ أجلس فوق الخرابِ
وأكتب فوق الخرابِ
وأعشق فوق الخرابِ
فكيف سأهديك باقة زهرٍ؟."

* *

- **و أنا أقول:**

إذا كان عصريَ ليس جميلاً
فباقةُ زهرٍ تجمّل عصري..
وإن كنتُ أجلس فوق الخرابِ
وأكتب فوق الخرابِ
وأعشق فوق الخرابِ
فهل سأهديك باقة من خرابٍ؟
أم سأزرع فوق الخراب بساتين زهر؟

- **يقول الشاعر الدكتور إبراهيم شحرور:**

كان الـ "صفر" ماشي عَ درب العيْن
وْمارق الـ "واحد" كان من حدّو
قلّو الـ "صفر: "
"بونجور، صرنا تنيْن" !
قلّو : " حلو يا صفر، يخزي العين
من أيمتى الْـ متلك بينعدّو؟" .

- **و أنا أقول:**

كان الـ "صفر" ماشي عَ درب العيْن
وْمارق الـ "واحد" كان من حدّو
قلّو الـ "صفر: "
بونجور، صرنا تنيْن.
قلّو : هلا يا صفر.. يخزي العين
خلّيتني عشرة..
والعشرة إن ما بيقدّو..
هاتلك بعد شي صفر أو صفرين..

منصير ميّة.. ألف.. ينعدّو..
إنت الصفر.. بالقلب قبل العينْ
وقّف يميني وهيك.. ما منصير بسّ تنين
منصير وجه الريح منسدّو..

- **يقول الصديق الشاعر أفت الحلبي:**

ما قدر يهدّي الحمام
على الإيد المقطوعة
ميل الكحل بأرض الشام
وعين الفيجة.. مقلوعة

- **و أنا أقول:**

بكرا بيهدّي الحمامْ
خلّي إيدك مرفوعة..
ميل الكحل بأرض الشام
وعين الفيجة رح توعى!
ولو شفتا كلاّ أحلام..
وما في دعوة مسموعة
ظلّك واقف أوعى تنام
وداوي العين الموجوعة.

____

- **قال شاعر صديق:**

بْياخد عَ خاطرها

الغصون اليابسي،

لمّا الربيع يقلّها:

"انْقِبري الْبِسِي"

وأنا أقول:

شو بتفرح قلوب

الغصون العارية

لمّا الربيع يقلها:

"حضّرت لِكْ فستان

تاج، وصولجان

إنتِ ملكة الحقل

مَنّكْ جارية!".

- يقول شاعر الزجل زين شعيب :

لو كنتي أرمنيّة
إسمي أرتين
ولولا كنتي درزيّة
بقَمّص بالصين
ولو كنتي يهوديّة
بَعمل كوهين
ولولا كنتي شيعيّة
بِرجع محمود

- و أنا أقول:

بدل ما تظلك ضايع بين دين ودين
تموت و ترجع تتقمص ببلاد الصين
نادو بالانسانية وقولو آمين
و"آدم " أحلى الأسامي يا بو محمود !

- وخلال ثواني **يرد الصديق الشاعر جورج الخوري :**

بالانسانية نحنا منصير قراب ...
وبيرضى عنا الباري رب الارباب ...
من آدم نحنا جينا ومنعود تراب ...
وتراب اللي بيحوينا ما إلو دين ....

- يضيف الاستاذ نصر ابو اسماعيل :

الانسانيّ مطلوبي من كلّ الناس
مُحمّد أخو موسى وشقيق الياس
من خوابي المحبّي بيعبّو الكاس
ودين الما بيفرّقنا ها أحلى دين

سلمى سلامة عبيد

- **الولادة :**

٥ تشرين الأول ١٩٤٦ ، السويداء ، سوريا

- **الدراسة :**

١٩٤٩-١٩٥١ المدرسة الإنكليزية عين عنوب لبنان

المراحل الابتدائية والاعدادية والثانوية: مدارس السويداء، حمص،القاهرة

١٩٦٣-١٩٦٧ جامعة دمشق قسم اللغة الإنكليزية

١٩٧٣-١٩٧٤ دبلوم تربية من الجامعة الأميركية في بيروت

١٩٨١-١٩٨٣ ماجستير بدرجة امتياز من جامعة تكساس في الولايات المتحدة في طرائق تدريس اللغة الإنكليزية (صدرت الشهادة ١٩٨٤)

- **الدورات :**

١٩٨٥ دورة في **برمنغهام** إنكلترا نظمها المركز الثقافي البريطاني

١٩٩١ دورة في **برشلونة** اسبانيا من تنظيم قسم اللغة الإنكليزية ESADE

١٩٩١ دورة في **كليات التقنية العليا دبي**

إضافة إلى دورات نظمتها الجامعة الأميركية في بيروت، شركة أرامكو في السعودية، و مركز اللغات في جامعة دمشق

- **العمل:**

١٩٦٩ – ١٩٧٣ تدريس في ثانويات السويداء

١٩٧٥-١٩٧٩ تدريس لموظفات شركة أرامكو في السعودية

١٩٧٩ افتتاح أول مركز دورات تعليمية في السويداء

١٩٨٣- ١٩٨٦ تدريس في جامعة دمشق : مركز اللغات، كلية التربية، كلية الآداب، كلية الزراعة

١٩٨٦-١٩٩٠ تدريس في جامعة الإمارات العربية المتحدة

١٩٩٠-١٩٩٣ تدريس في كليات التقنية العليا ، دبي

إعادة افتتاح مركز الدورات التعليمية في السويداء ولغاية ٢٠١٠

- **الكتابة** :

١- **هنا كانوا** : فسيفساء من قصص قصيرة تتجمع لتشكل سيرة ذاتية روائية عن فترة الخمسينيات في لبنان وسورية ، طبعة أولى ٢٠١٧ صادر عن دار ليندا في سوريا ، طبعة ثانية ٢٠١٨ صادر عن دار ليندا، الكتاب مؤرشف في مكتبة الكونجرس وعدد كبير من مكتبات الجامعات في الولايات المتحدة وأستراليا وأوروبا ، إضافة إلى البلدان العربية .

٢- **سلامة عبيد**: إعداد وتوثيق لسيرة الأديب سلامة عبيد ومختارات من أعماله دار ليندا ٢٠١٨

٣- **نو افذ على فضاء أزرق** : قصص قصيرة ـ دار هدوء للنشر ٢٠٢٠

- **صدر أيضا :**

ترجمة كتاب " **مغامرات علماء الفيروسات المذهلة** " صدر بالإنكليزية عن دار سيمازا في بلجيكا بعدة لغات وقد **ترجمته إلى العربية نثراً وشعراً وأغنيات** ... تم طبعه في الكويت من قبل المؤسسة الكويتية للدعم العلمي.. KFAS

Rainbow كتاب لغة إنكليزية للأطفال

Fun with English كتاب لغة إنكليزية للأطفال

قصص لمجلة أسامة

أدرج اسمي في موسوعة أدباء الأطفال ..

- **حاليا أشرف على :**

موقع الأديب سلامة عبيد www.salamaobeid.com

صفحة أديب Salamah Ali Obaid

صفحة فيسبوك Salamah Obaid

صفحة الشاعر والمجاهد أبو نايف علي عبيد

وصفحتي التي أكتب فيها يوميا ودون انقطاع منذ عام ٢٠١٣، والصفحة أدبية، اجتماعية، ثقافية ولها عدد كبير من المتابعين . Salma S. Obaid

المحتويات

الغريبة ذات الفستان الزهري ٣
همس المشاعر! ٧
مرحبا آنسة.. عرفتيني؟! ١١
عرّاب الثقافة! ١٣
غريقة ١٦
امسح واربح! ٢٠
سلمى عبيد.. مطلوبة عند الضابط! ٢٢
من جامعة دمشق ٢٦
ليراتي السوريّة تطير في سماء بيروت! ٢٩
"أبو بطّيخة"! ٣٤
عندما علقتُ في روما! ٣٨
أين أسكن؟ وكيف أجد ثمن الطعام؟ ٤٠
فاصفور! ٤٣
مَنْ لإكرام الضيف غير أبو نمر!؟ ٤٦
ضيوف يحكون حكاية ٤٩
المصاري وسخ الدنيا ٤٩
بيت رجال ولا بيت مال! ٥١
هاتي السكّين! ٥٧
كان مجرماً.. الله يرحمه! ٥٩
مهملة! ٦١
زيارة الأكابر! ٦٣
تمرين مضمون للتغلّب على التعب ٦٥
يا زلمة! معقول آخذ منكم مصاري؟! ٦٧
عقل مثل الماء ٦٩
قطار.. ومحطّات! ٧٢
" Aloe vera" ألوي فيرا ٧٤

شاميّة وجاي من الشام ٧٦
الرحلة إلى الكوم ٨١
عندما تمتلئ الأفواه بالتبن! ٨٥
إنتي شو بيعرف تشتغلي؟ ٨٨
قوارير...ضد الكسر! ٩٠
ملبّس عقضامي وزبيب! ٩٢
نحنا شو دَخَلنا ؟ ٩٤
عزيمة عرمونيّة ٩٨
فنجان قهوة ١٠١
يوم اللغة العربّية ١٠٤
مشاكسات شعريّة ١٠٥
سلمى سلامة عبيد ١١٢